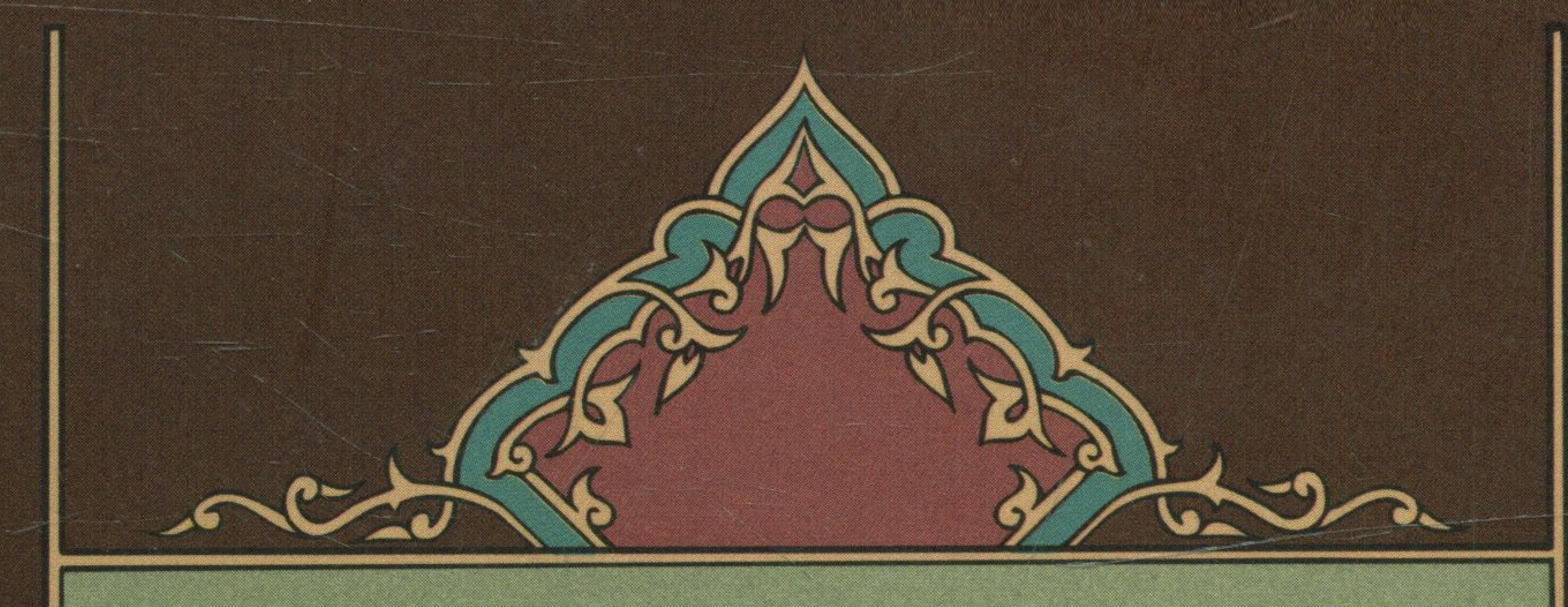
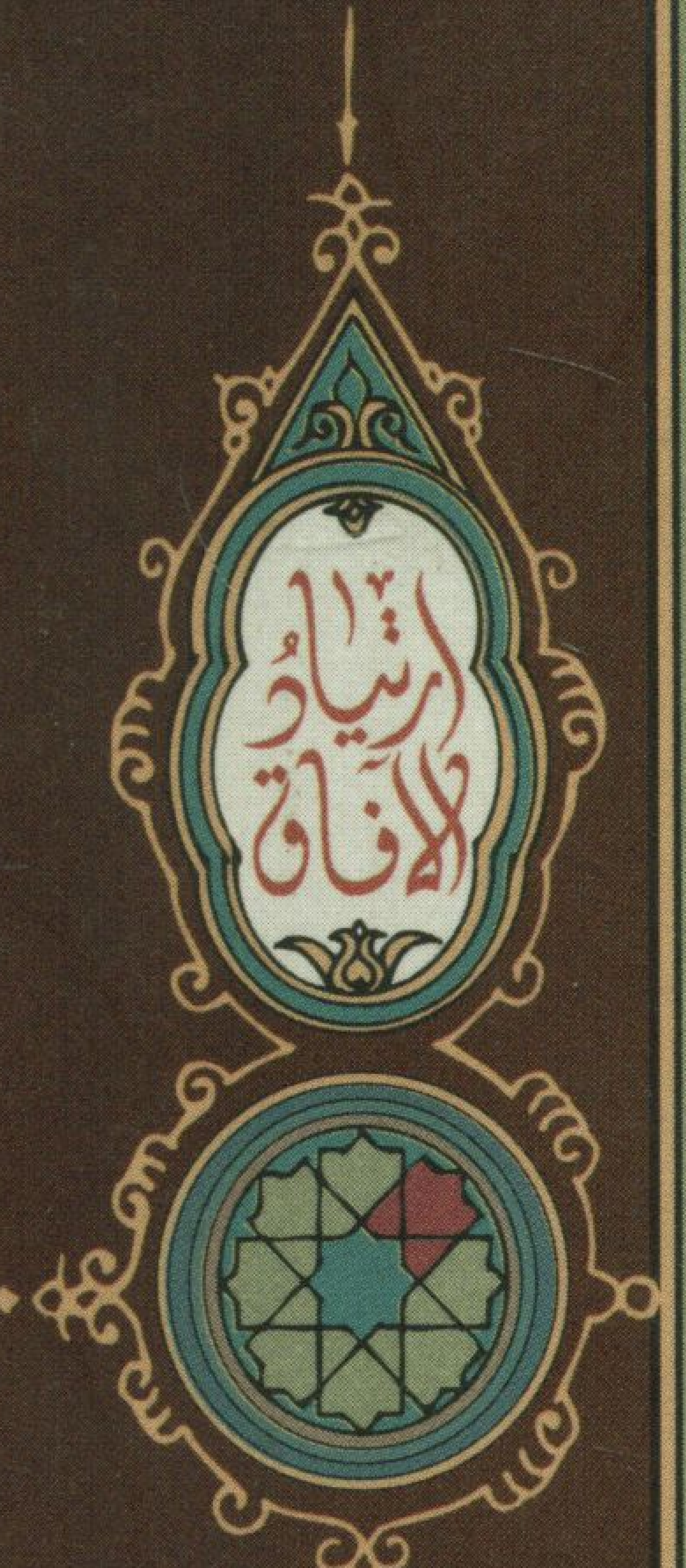
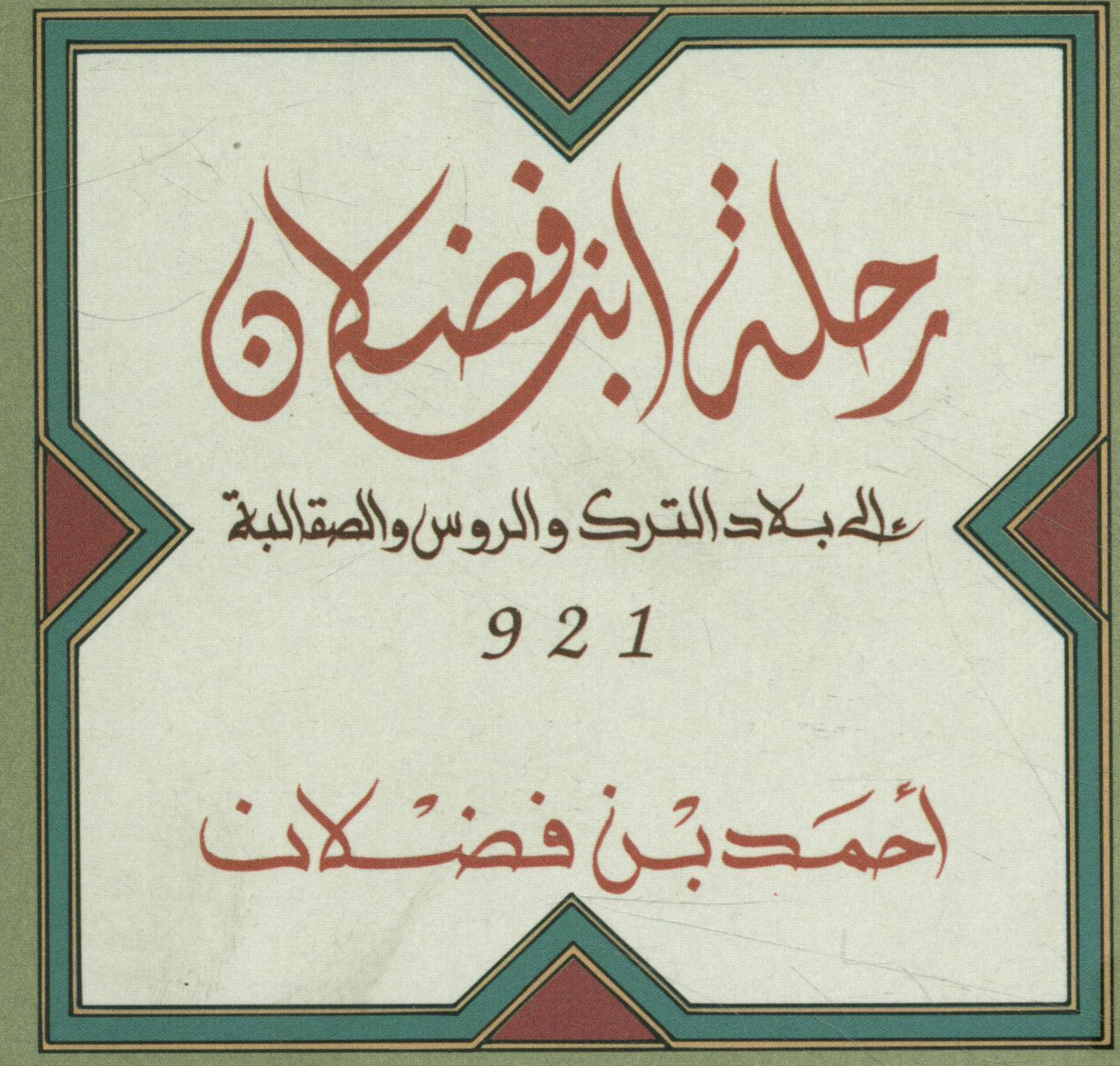






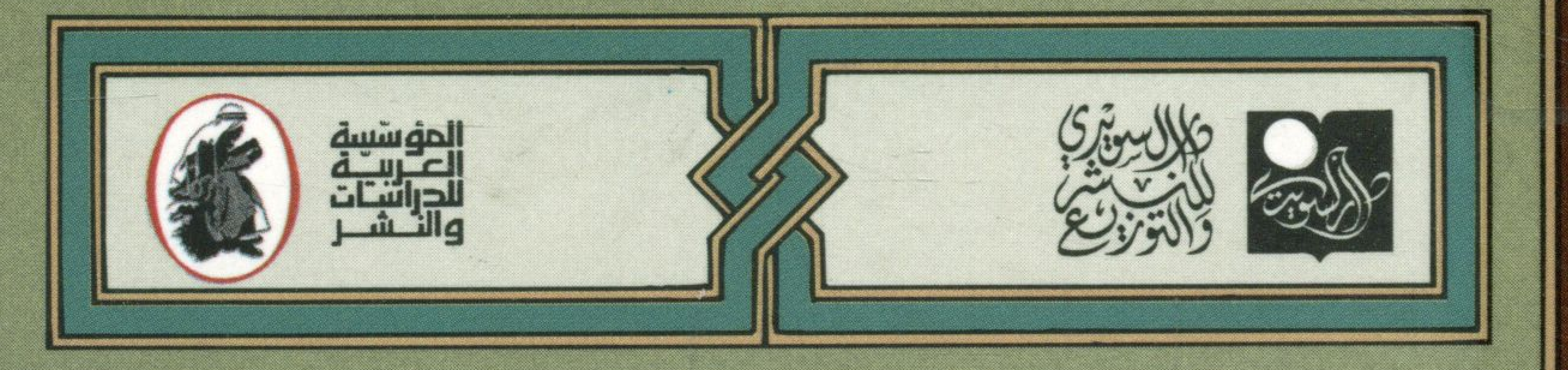
رحلة ابن فضلان

إلى بلاد الترك والروس والصقالبة

921

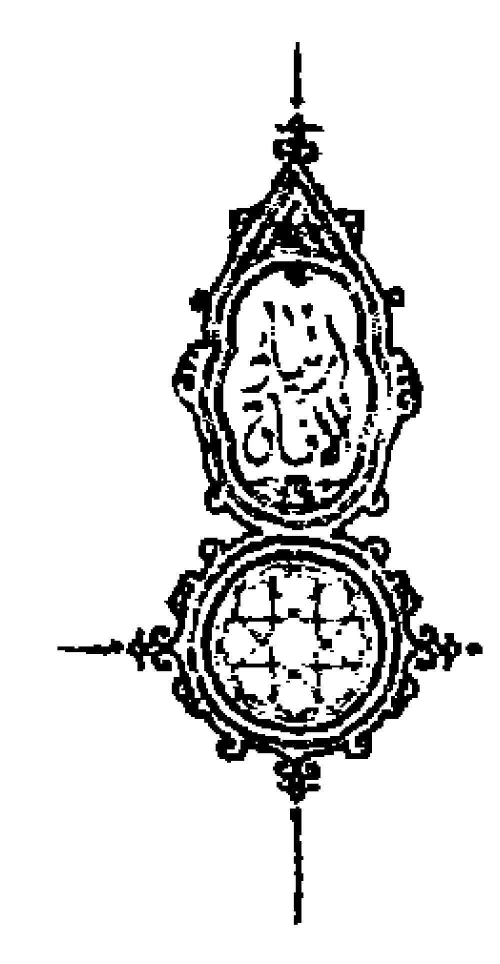
أحمد بن فضلان

حررها وقدم لها: شاكر لعيبي



رحلة ابن فضلان

إلى بلاد الترك والروس والصقالبة



رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة (٩٢١) / أدب رحلات
أحمد بن فضلان/ مؤلف ، [حرّرها وقدّم لها : شاكر لعيبي]
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣
حقوق الطبع محفوظة





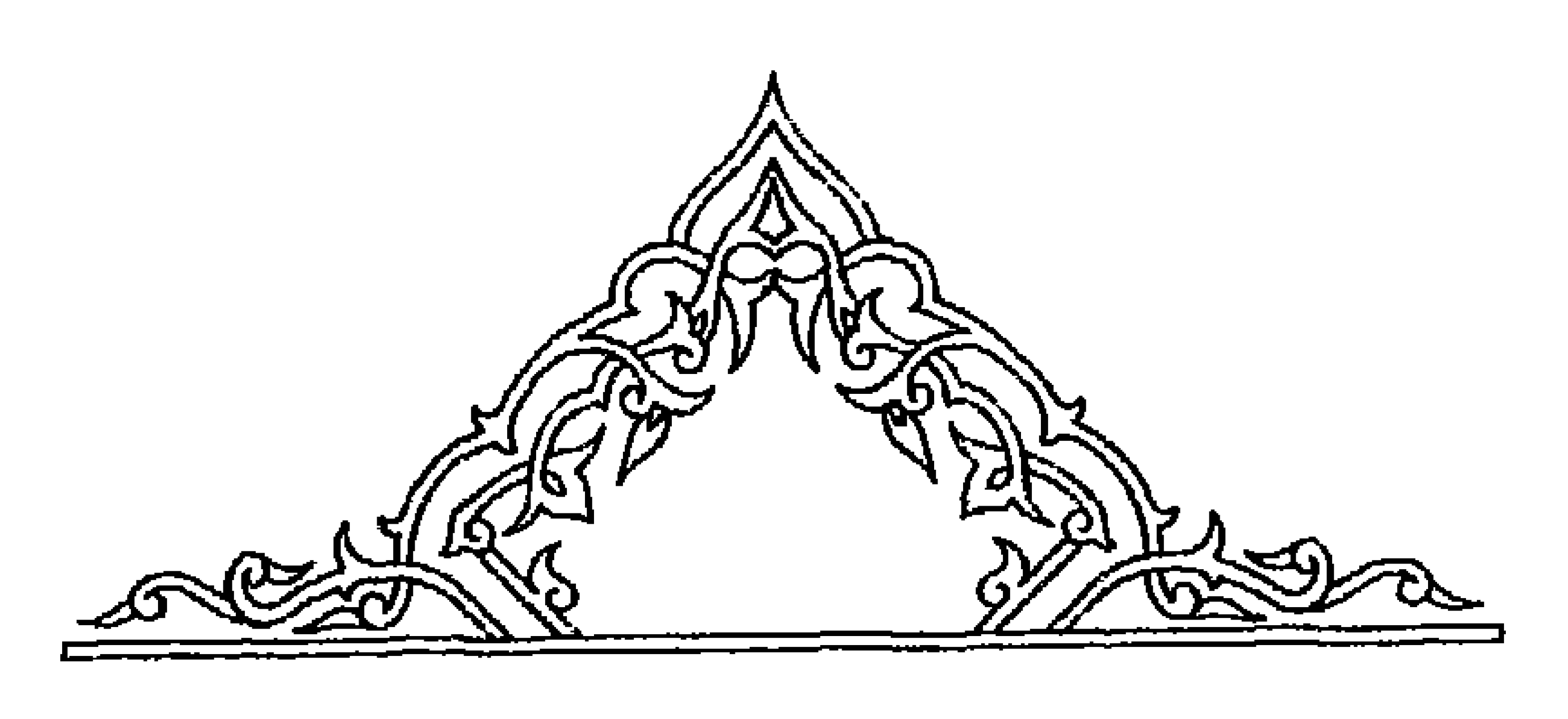
دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : ٤٤٤٨٠
الإمارات العربيّة المتّحدة ،
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@jonet.com
الخطوط وتصميم الغلاف :
منير الشعراني / مصر
الصفّ الضوئي :
القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنيّة / عمّان
التنفيذ الطباعيّ :
سيكو للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

ISBN 09953-441-36-7

ISBN: 9953-441-36-7

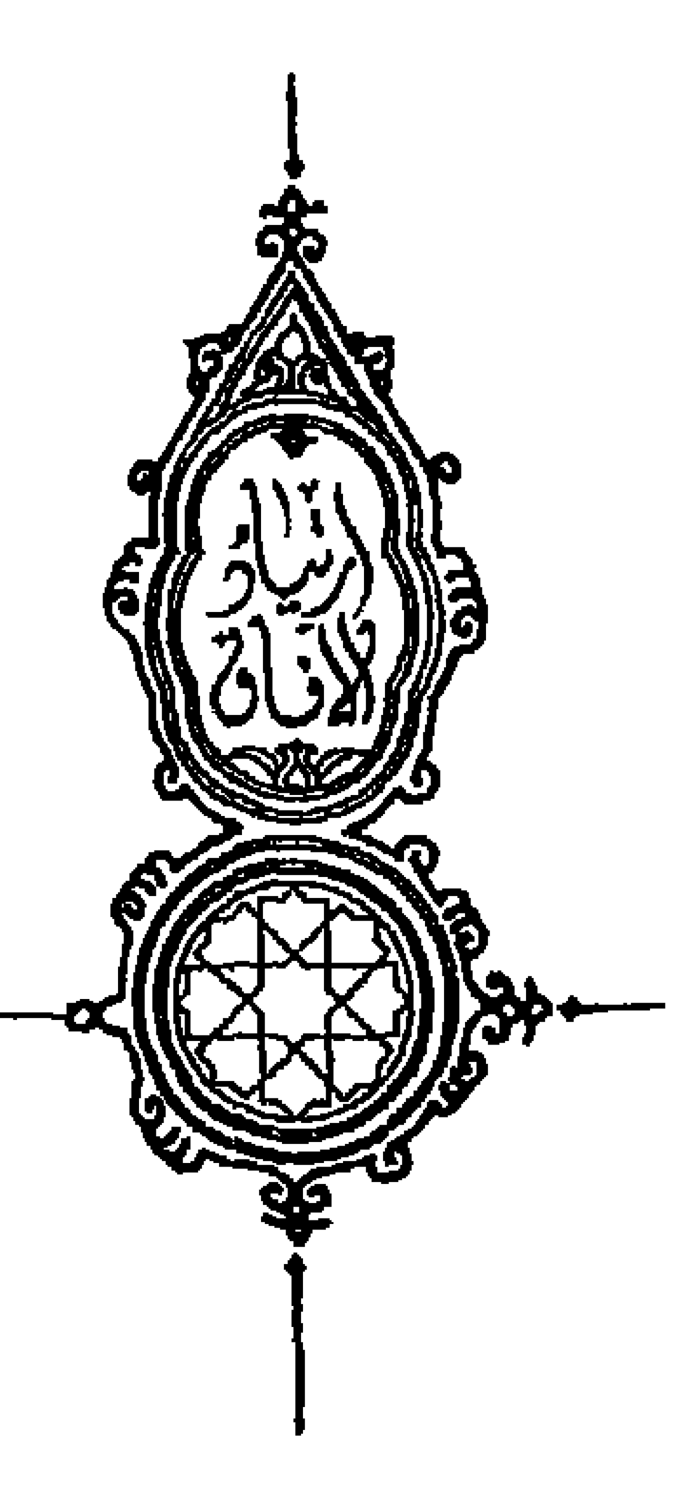


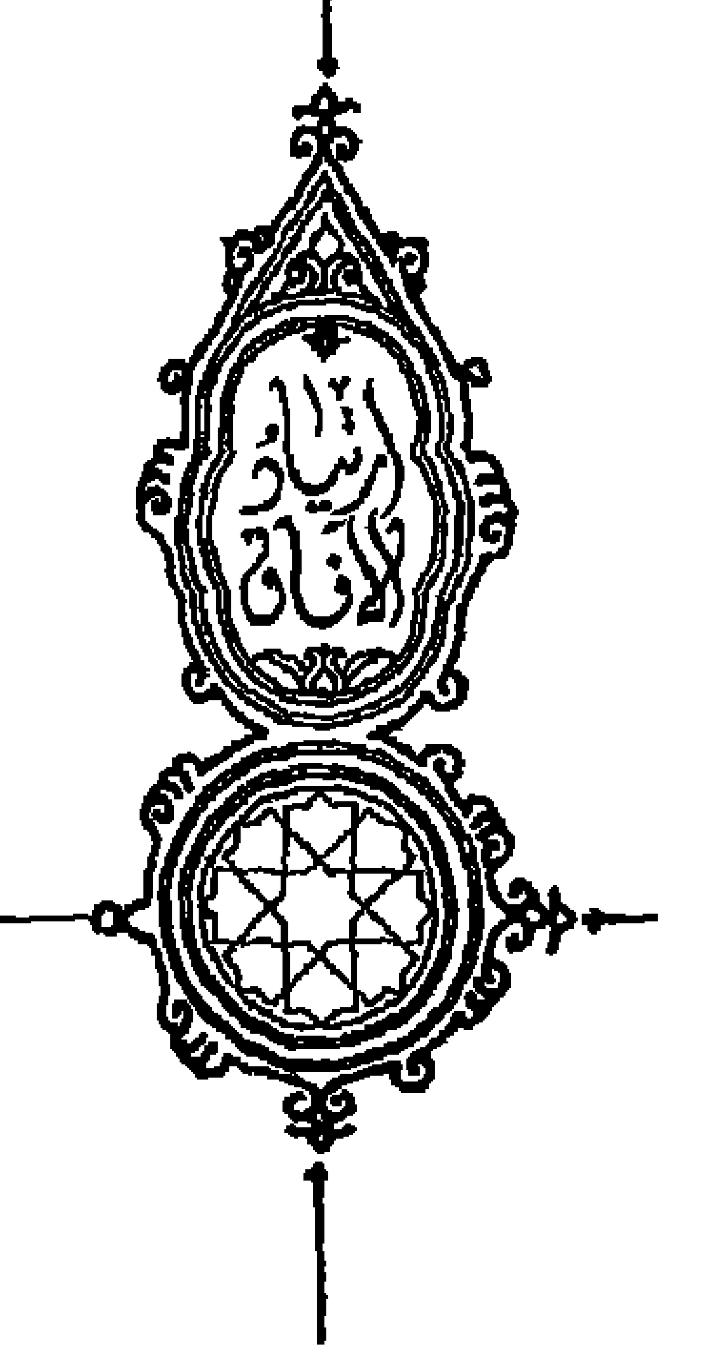
رحلة ابن فضلان

إلى بلاد الترك والروس والصقالبة

921

حررها وقدم لها: شاكر لعيبي





يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجراح

. . .«فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة جاءوا بالجارية إلى شيء قد عملوه مثل ملبن الباب فوضعت رجليها على أكف الرجال وأشرفت على ذلك الملبن، وتكلمت بكلام لها فأنزلوها، ثم أصعدوها ثانية، ففعلت كفعلها في المرة الأولى، ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة، ففعلت فعلها في المرتين، ثم دفعوا إليها دجاجة فقطعت رأسها ورمت به وأخذوا الدجاجة فألقوها في السفينة. فسألت الترجمان عن فعلها فقال: قالت في أول مرة أصعدوها: هو ذا أرى أبي وأمي وقالت في الثانية: هو ذا أرى جميع قرابتي الموتى قعوداً. وقالت في المرة الثالثة: هو ذا أرى مولاي قاعداً في الجنة والجنة حسنة خضراء ومعه الرجال والغلمان وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه. فمروا بها نحو السفينة فنزعت سوارين كانا عليها ودفعتهما إلى المرأة التي تسمى ملك الموت وهي التي تقتلها ونزعت خلخالين كانا عليها ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها وهما ابنتا المرأة المعروفة بملك الموت. ثم أصعدوها إلى السفينة ولم يدخلوها إلى القبة وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ودفعوا إليها قدحاً نبيذاً فغنت عليه وشربته، فقال لي الترجمان: إنها تودع صواحباتها بذلك ثم دفع إليها قدح آخر فأخذته وطولت الغناء والعجوز تستحثها على شربه والدخول إلى القبة التي فيها مولاها فرأيتها وقد تبلدت وأرادت دخول القبة فأدخلت رأسها بينها وبين السفينة فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القبة ودخلت معها. وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجواري ولا يطلبن الموت مع مواليهن ثم دخل إلى القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية ثم أضجعوها إلى جانب مولاها وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها وجعلت العجوز التي تسمى ملك الموت في عنقها حبلاً مخالفاً ودفعته إلى اثنين ليجذباه وأقبلت ومعها خنجر عريض النصل فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعاً موضعاً وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت.»

من نص الرحلة ص108



تَهْـدُفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحـدٍ من أعـرقِ ألوانِ الكتـابةِ في ثقـافـتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيّاتِ أدبِ الرِّحلةِ ، إلى جانبَ الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحَّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم ، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب ، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملؤوا دروبَ الشّرق ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً ، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستأثر بالأشياء ، والمتهيّئ لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم ، وتُمهِّدُ الرأي العام ، تالياً ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي

لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

على أن الظَّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله ، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيَّة لمجتمعاتها جديدة عليها ، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري ، لتجد نفسها تملك ، بدورها ، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر ، بحثاً واستكشافاً ، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته ونمط عيشه وأوضاعه ، ضاربة بذلك الأمثال للناس ، ولينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمِّسٍ لأفكاره وصياغاته ، وبين معادٍ للغرب ، رافض له ، ومستعدٍّ لمقاتلته .

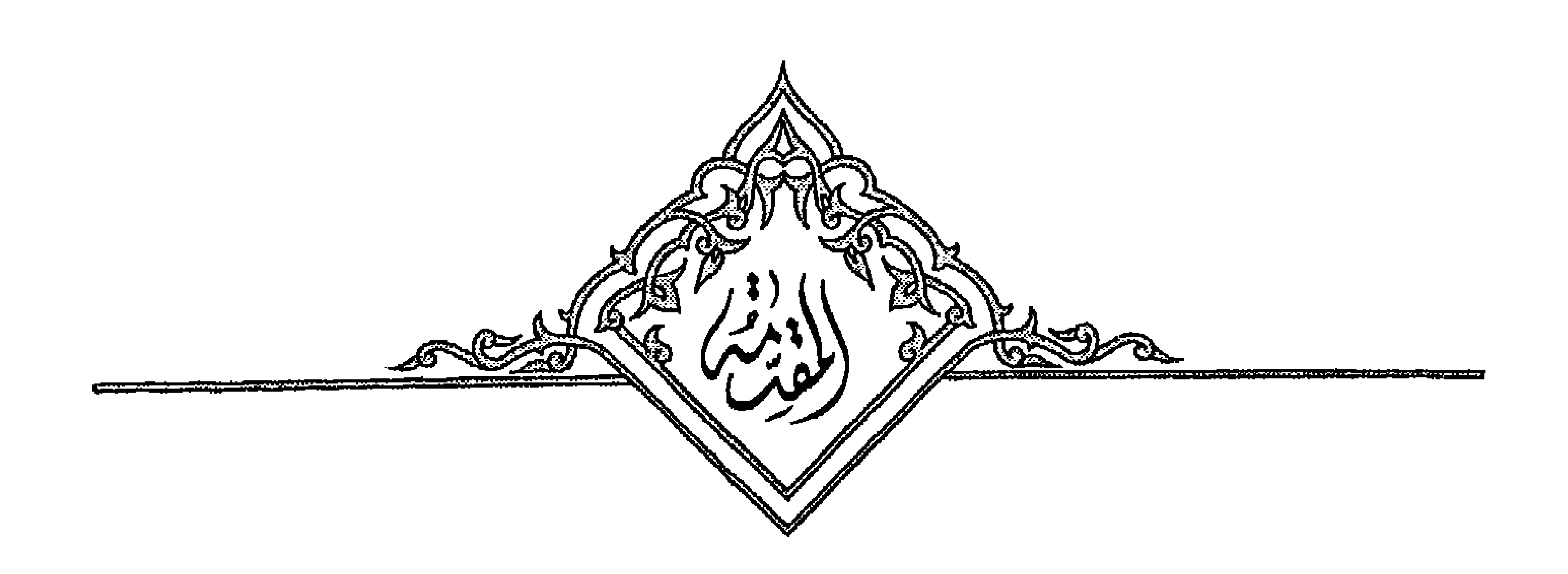
وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين ، عَبْرَ رسمِ صورٍ دنيا لهم ، بواسطة مخيِّلة جائعة إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتَّضحُ من خلال نصوص هذه السلسة ، ركّز ، أساساً ، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة ، وتطوّر العمران ، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساساً ، من بابِ طَلَبِ العلم ، واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا المنقلب ، نجد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيَّة وحداثتها من

موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسِّر على ماضيه التليد ، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة ، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها .

أخيراً ، لابد من الإشارة إلى أن هذه السّلسلة التي قد تبلغُ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالَمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

محمد أحمد السويدي

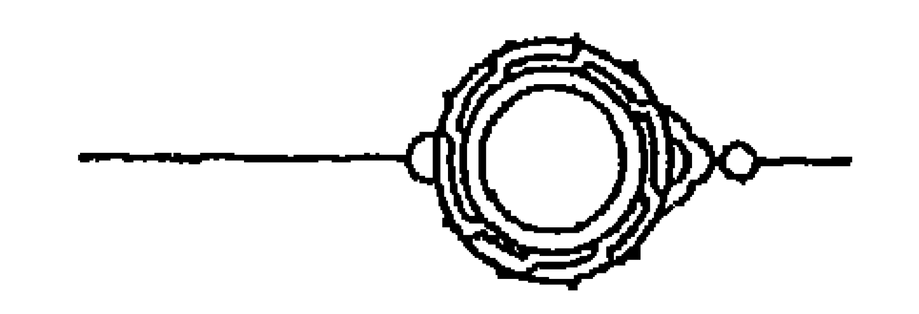


إذا ما استحقّت رحلةُ ابنِ فضلانَ التي قام بها سنة 921م عنايةً استثنائيةً من طرفِ الباحثين والمحققين ، فلأنّها من أوائلِ الرحلاتِ العربيةِ التي وصلتْ إلينا . ومقارنةً برحلةِ أبي دُلَف سنة 942 ، ورحلةِ المقدسي سنة 985-990م ، فإن رحلة ابن فضلان تظلُّ مشغولةً بهَمٍّ توثيقيٍّ صرفٍ أكثرَ من اهتمامِها بالشأنِ الجغرافيِّ . إنّها وصفٌ أنثروبولوجيٌّ يتمحور حول موضوعٍ واحدٍ محدَّدٍ لا يحيد عنه رغم قصر النُّسخةِ الواصلةِ إلينا .

لقد انطلق ابنُ فضلانَ يوم الخميس 11 صفر سنة 309هـ ، الموافق 21 حزيران سنة 921م ، برحلةٍ شائقةٍ بتكليفٍ من الخليفةِ المُقْتَدرِ العباسيِّ الذي طلب الصقالبةُ العونَ منه . واستغرقت الرِّحلةُ أحد عشر شهراً في الذَّهابِ ، وكانت مليئةً بالمغامراتِ والمشاقِّ والمصاعبِ السياسيَّةِ والانفتاحاتِ على الآخرِ المختلف ثقافياً .

والصقالبةُ هم سكّانُ شمالِ القارَّةِ الأوربيَّةِ ، وكانوا يسكنون على أطرافِ نهرِ الفولغا ، وتقع عاصمتُهم بالقربِ من (قازان) اليومَ في خطٍّ يوازي مدينةَ موسكو .

وكان وفدُ الخليفةِ المقتدرِ إلى ملكِ الصقالبةِ يتكوَّن من أربعةِ رجالٍ أساسيين وبضعةِ مرافقين من الفقهاء والمعلمين والغلمان .



النسخة الوحيدة لمخطوطة رسالة ابن فضلان:

صدرت الطبعةُ الأولى من «رسالة ابن فضلان» بدمشق سنة 1959 عن مجمع اللُّغةِ العربيةِ في دمشقَ بتحقيقِ الدكتور سامي الدهان، مع تقديمٍ واسع وشروحاتٍ ضافية. ثُمَّ صدرتْ طبعتُها الثانيةُ عن مديريةِ إحياءِ التراثِ العربيِّ في وزارةِ الثقافةِ والإرشادِ القوميِّ السوريةِ عام 1977. ثم صدرتْ لها طبعةٌ ثالثةٌ (كُتب عليها أنَّها الطبعةُ الثانيةُ!) سنة 1987 عن مكتبةِ الثقافةِ العالميةِ في بيروت، وعليها نعتمد نحن في طبعتنا هذه.

يتخذ الدكتور الدهان من (صورةٍ شمسيةٍ) لرسالةِ ابنِ فضلانَ أصلاً للتحقيق الذي قام به. وإليكم تفصيل الأمرِ: في سنة 1924 نشر ماركوارت Markwart دراسةً عن الرَّحالةِ في ليبتسك، وفي نفسِ السَّنة تسلَّم المعهدُ الآسيويُّ للاستشراقِ في بطرسبورغ ورقتين مصورتين من النُّسخةِ الخطيَّةِ التي اكتُشفت في مدينةِ مشهد (طوس) الإيرانية، ووصلتْ بقيَّةُ الأوراقِ مصورةً بعد عشرِ سنوات إلى المعهدِ. ومنذ ذلك العامِ نفسِه نُشر مقالٌ بالروسيَّةِ في التَّعريفِ بالنُّسخةِ الخطيَّةِ المُكْتَشَفَةِ في خزانةِ المخطوطاتِ بمشهد. في سنة 1926 صدر فهرسُ هذه الخزانةِ، وفيه وصفٌ هذه النُّسخةِ، تحت رقم 2 «أخبار البلدان»عربي. وقد كُتبت المخطوطةُ بخطِّ النَّسخِ، وفي كلِّ صفحةٍ منها 19 سطراً، وأوراقها 212 ورقةً آخرُها مبتورٌ مخرومٌ.

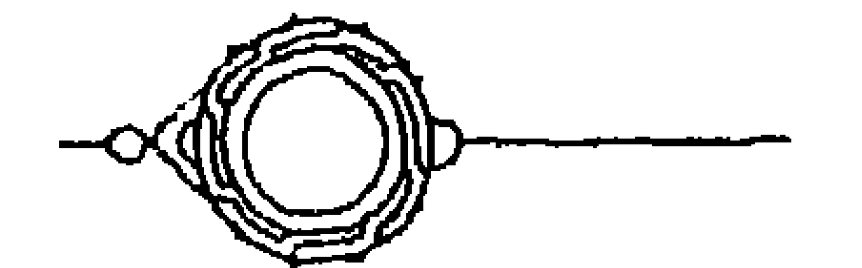
وأوَّلُ منْ حقَّق مخطوطةَ مشهد وعلَّق عليها وترجمها هو الباحثُ التركيُّ وليد زكي طوغان الذي قابلها على ما جاء عند ياقوت الحموي ,ونشرها بالحروفِ العربيةِ والترجمةِ الألمانيةِ وطبعها سنة 1939. وفي السَّنةِ نفسِها ترجمها المستشرقُ الكبيرُ كراتشوفسكي وكتب لها مقدمة ضافية، وفي آخر دراسته نشر صورةً فوتغرافيةً للرِّسالةِ كاملةً عن مخطوطةِ مشهد وبحجم كبير(1).

وإلى أساسِ هذه الصورِ الشَّمْسِيَّةِ التيْ نشرها كرتشوفسكي يستند التحقيقُ كلُّه

(1) انظر لمزيد من التفصيلات مقدمة الدكتور سامي الدهان: «رسالة ابن فضلان» الطبعة الثالثة (كُتب عليها أنها الطبعة الثانية!) عن مكتبة الثقافة العالمية، بيروت، سنة 1987.

الذي قام به د. الدّهان، وبالاستعانةِ، كما أحسبُ، بطبعةِ وليد زكي طوغان العربيةِ-الألمانيةِ.

ياقوت الحموي يقود إلى ابن فضلان



قبل التوصُّلِ إلى اكتشافِ مخطوطةِ مشهد التي نشرها د. الدّهانُ فإنَّ النقولاتِ التي قام بها ياقوتُ الحمويُّ في (معجم البلدان) عن رحلةِ ابنِ فضلانَ هي التي قادت المستشرقين والباحثين للاهتمامِ بابن فضلانَ محاولين العثورَ على نسخةٍ من عملِه، وهو ما توصلوا إليه أخيراً.

يثبتُ د. الدّهانُ أنَّ الإصطخريَّ[2] وابنَ رسته والمسعوديَّ قد قرأوا رسالةَ ابنِ فضلانَ ونقلوا عنه دون أن يُثبتوا أنَّهم قد نقلوا عنه. لكنَّ الرُّجوعَ إلى هؤلاءِ يُبرهن أنَّ ما يذكرونه ,عن الروسِ والخزرِ والبلغارِ ,لا يبدو كثيرَ التطابقِ مع رسالةِ ابنِ فضلانَ إلا عرضاً وبنقاطٍ معلوماتيةٍ مُشاعةٍ، يمكن أن تتهيأ لأيِّ جغرافيٍّ جاد دون أن ينقل بالضرورة عن غيرِه.

يذكر الدّهانُ أنَّ ياقوت، في القرنِ السابع، كان (أول) من أشار إلى ابنِ فضلانَ، مختاراً فصولاً من رسالتِه ومُدْرِجاً إيَّاها في معجمِه، مُصَرِّحاً أي ياقوت، بأوضحِ

(2) الإصطخري: هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطرخي، المعروف بالكرخي، نشأ في إصطخر ونُسب إليها. وفي (كشف الظنون) هو أبو زيد محمد بن سهل البلخي، وفي دائرة المعارف الإسلامية هو أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري. طلب العلم ونبغ في حدود عام 349 هـ، وعني بأخبار البلاد. فخرج يطوف المناطق حتى وصل إلى الهند، ثم إلى سواحل المحيط الأطلسي، وفي رحلاته لقي نفراً من العلماء في الحقول المختلفة. لم تكن مصادر علم البلاد (علم الجغرافيا) موفورة في عصره، فكان بذلك أول جغرافي عربي صنّف في هذا الباب، إمّا عن مشاهدة فعلية وإمّا نقلاً عن كتاب بطليموس. وقد نقلت مؤلفاته إلى عدة لغات وتمّ طبعها عدة مرات. وقد وصلنا من أعماله كتابان: كتاب (صور الأقاليم) الذي ألفه على اسم أبو زيد البلخي، والثاني كتاب (مسالك الممالك).

عبارة ، بأنّه ينقل عنه ، خاصةً تحت المواد : خوارزم ، باشغرد ، بلغار ، إتل ، روس ، خزر . وقد أثبتَ ياقوتُ قرابةَ عشرين صفحةً من الرِّسالةِ ، وترك خمسَ عشرةَ صفحةً منها ، فكأنَّه ، كما يقول د . الدّهانُ ، نقل ثلثيها وبقي ثلثٌ واحدٌ- على الأقلِّ- مجهولاً .

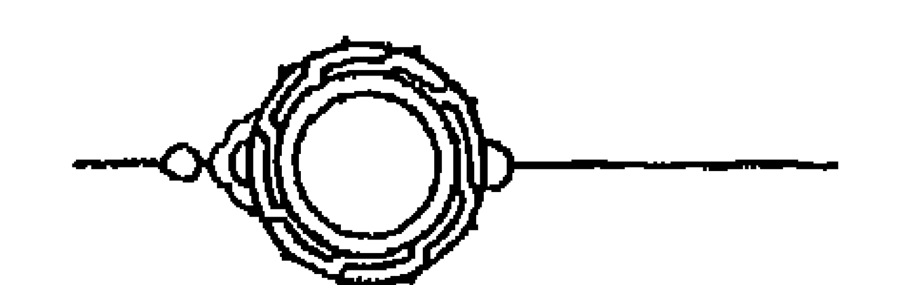
هل كان ياقوتُ الأوّلَ والوحيدَ الذي يصرِّح جهاراً بنقلِه عن ابنِ فضلانَ كما يقول د . الدهان ويتابعه الجميعُ بعد ذلك؟ كلا . وهنا واحدةٌ من نتائجِ بحثِنا في رسالةِ ابنِ فضلانَ ومن فضائلِ طبعتِنا الحاليَّةِ هذه كما سنرى .

لنَعُدْ إلى المستشرقين المهتمِّين بتاريخِ الروسِ والبلغارِ ، ولْنَرَ إلى أنَّ اهتمامَهم سنة 1800 قد قادهم إلى نشرِ ما قاله العربُ عن الروسِ وفيهم الإدريسيُّ والمسعوديُّ وابنُ فضلانَ (عبر ما ينقله ياقوتُ فحسب لأنَّ نسخةَ مشهدَ كانتْ مجهولةً) . سنة 1841 جمع المستشرقُ راسموسن Rasmussen مقاطعَ من فصولِ ياقوتَ المنقولةِ عن ابنِ فضلانَ وترجمها إلى الروسيَّةِ ، ونقلها عنه إلى الإنكليزيةِ نيكلسون بعد أربعِ سنوات . سنة 1819 جمع المستشرقُ الألمانيُّ فرين Fraehn مخطوطاتِ ياقوتَ ليستخرجَ منها ما نقله الأخيرُ عن ابنِ فضلانَ ونشرها تباعاً منذ سنة 1822 . سنة 1863 نشر وستنفلد دراسةً بالألمانيةِ عن الرحلاتِ عند ياقوتَ وفيها رحلةُ ابنِ فضلانَ ، وكان يجمع مخطوطاتِ ياقوتَ من أجلِ نشرِ معجم البلدان . وفي سنةِ 1899 نشر فستبرغ Festberg دراسةً كذلك عن ابنِ فضلانَ . وفي سنةِ 1902 نشر المستشرقُ فون روزن Rosen مقالاً بالروسيَّةِ عن ابنِ فضلانَ كذلك . سنة 1911 كتب المستشرقُ التشيكيُّ دفورجاك Dvorak دراسةً عن رحلةِ ابنِ فضلانَ نشرها في براغ ، وبعد عامين نشر برتولد Barthold بالروسيَّةِ دراسةً عن موضوعِ الرحلاتِ إلى روسية عند العرب .

كان ابنُ فضلانَ (المنقولُ عبر ياقوتِ الحمويِّ) في صلبِ اهتماماتِ هؤلاءِ المستشرقين . وكان ياقوتُ إذن حلقةَ وصلٍ وتعريفٍ بالرجلِ قبل اكتشافِ مخطوطةِ مشهدَ آنفةِ الذِّكْرِ .

وياقوتُ الحمويُّ (وُلِدَ عام 1178م- تُوفي عام 1228م) هو أديبٌ ومؤلفُ موسوعاتٍ ، وُلِدَ في مدينةِ حماة السوريَّةِ . اشتهر بكتابه «إرشادُ الأريبِ إلى معرفةِ

الأديب» ، الذي جمع فيه أخبارَ الأدباءِ إلى أيامه ، ورتَّبهم فيه حسب حروفِ المعجم ، وأشار إلى من اشتغل منهم بالكتابةِ أو الوِرَاقَةِ أو النَّسْخ أو الشِّعْرِ . ويُعتبر الكتابُ موسوعةً ضخمةً للأدباءِ . ذكر ياقوتُ في مقدمته كتبَ التَّراجم الكثيرةِ التي استفاد منها ، وتدلُّ القائمةُ الكبيرةُ التي ذكرها على أنَّه عَلَمٌ من أَعلام مؤلفي الموسوعاتِ في التاريخ . كما يدلُّ على ذلك أيضاً تأليفُه كتاب «معجم البلدان» ، وهو موسوعةٌ جغرافيةٌ ضَخمةٌ تستغرق عِدَّةَ مجلَّداتٍ ، رُتِّبَتْ هي الأخرى على حروفِ المعجمِ ، وتتضمَّن معلوماتٍ أدبيةً وتاريخيةً ولغويَّةً في غايةِ التنوُّع والثراءِ .



ياقوتُ الحمويُّ ليس الوحيدُ الذي يشير إلى ابنِ فضلانَ

من حينها حتى يومنا ، جرى اعتبارُ ياقوت الحموي المصنِّف الوحيد الذي ينقل عن ابن فضلان ويشير بصراحة إلى ذلك بتعبيرات من قبيل : «وقرأت رسالة عملها أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة ذكر فيها ما شاهده منذ انفصل من بغداد إلى أن عاد إليها» أو «قرأت في كتاب أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد رسول المقتدر إلى بلاد الصقالبة» أو بتعبيرات نقدية بصدد ما وجده في الرسالة من الأفكار المنافية للمنطق والعقل .

على أننا اكتشفنا أن ياقوت ليس الوحيد الذي يعترف بنقله واستشهاده بابن فضلان . القزويني كان يفعل في كتابة (آثار البلاد وأخبار العباد) ، وبثلاثة مواضع من كتابه :

1- «قال ابن فضلان في رسالته : رأيت جيحون وقد جمد سبعة عشر شبراً . والله أعلم بصحته» .

2- «حكى أحمد بن فضلان رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة لمَّا أسلم فقال : عند ذكر باشغرت وقعنا في . . .» إلخ .

3- «حكى أحمد بن فضلان لما أرسله المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة وقد أسلم حمل إليه الخلع . وذكر من الصقالبة عادات عجيبة منها ما قال : دخلنا

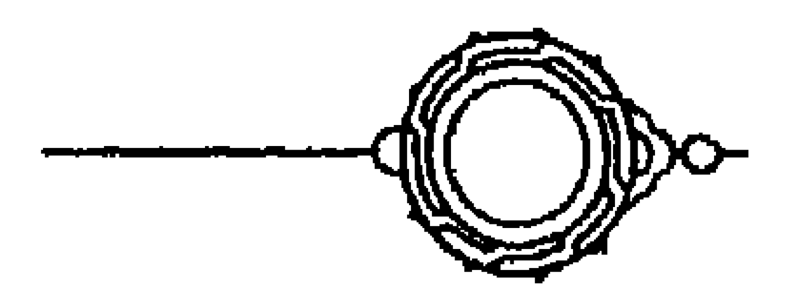
عليه . . .» .

والاستشهادات هذه مضمومة كاملة في هوامش طبعتنا الحالية .

والقزويني هو أبو عبد الله بن زكريا بن محمد القزويني ، ينتهي نسبُه إلى أنس بن مالك عالم المدينة . ولد بقزوين في حدود سنة 605 للهجرة (1184م) ، وتُوفي سنة 628 هـ ،(سنة 1261م) . اشتغل بالقضاء مدة ، ولكن عمله لم يلهه عن التأليف في الحقول العلمية . شغف بالفلك والطبيعة وعلوم الحياة ، وكانت أعظم أعماله شأناً هي نظرياته في علم الرصد الجوي . مؤلفه الرئيسي هو كتابه المعروف (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) وفيه وصف للسماء وما تحوي من كواكب وأجرام وبروج ، والأرض وجبالها وأوديتها وأنهارها . .إلخ . وقد رتب ذلك ترتيباً أبجدياً دقيقًا . كما كتب مصنَّفه (آثار البلاد وأخبار العباد) وفيه ثلاث مقدمات عن الحاجة إلى إنشاء المدن والقرى ، وخواص البلاد ، وتأثير البيئة على السكان والنبات والحيوان ، كما عرض لأقاليم الأرض المعروفة آنذاك وبلدانها ومدنها وشعوبها ، وخصائص كل منها .

توفي ياقوت سنة 1228م بينما توفي القزويني سنة 1261م أي أن بينهما 33 سنة فقط . يسبق إذن ياقوت الحموي القزويني ببضع سنوات ، هل يجوز أن يكون القزويني قد نقل عن ياقوت المقاطع المتعلقة بابن فضلان؟ . أشك بذلك بعمق ، لأن من غير المستبعد البتة (بل من المؤكد) أن تكون نسخة من كتاب ابن فضلان قد وقعت بين يديه هو نفسه وذلك لطبيعة إشاراته الصريحة المُشار إليها لرسالة ابن فضلان ، إضافة إلى أن معاصرته لمؤلف آخر يشتغل مثله على المادة والمعلومات المتوفرة نفسها في عصريهما ، لا تنفي وقوع نسخة من الرسالة بين يديه .

وعلى أية حال فنحن أمام واقعة جديدة ، ربما فاتت على من عالج ابن فضلان ودرسه ، وهي أن القزويني ، وليس ياقوت ، لوحده ، من يستخدمه ، بصراحة ، مرجعاً من مراجعه ويسمِّيه باسمه ويعترف بنقله عنه .



هل زار ابنُ فضلانَ البلدانَ الإسكندنافيّةِ؟

بعد عمل الدكتور سامي الدهان الرائد ، توقفنا ، بانتباهٍ أقل ، أمام كتاب آخر

يضم ، إضافة للرحلة التي حققها الدهان ، ما يحسبه مؤلفه القسم المفقود منها ، الضائع أصله ، بل إنه يسعى إلى تقديم كشف جديد بشأن مسارها ، زاعماً أن الرجل قد وصل حتى البلدان الإسكندنافية . والكتاب موضوع الإشارة قد صدر تحت عنوان :

رسالة ابن فضلان : مبعوث الخليفة العباسي المقتدر إلى بلاد الصقالبة ، عن رحلته إلى بلاد الترك والخزر والصقالبة والروس واسكندنافيا في القرن العاشر الميلادي ، جمع وترجمة وتقديم الدكتور حيدر محمد غيبة ، الشركة العالمية للكتاب ش م ل مع آخرين ، سوريا 1991 .

في المتن الطويل لعمل كريكتون ، الذي يسمّيه د . حيدر محمد غيبة (النص الإنكليزي) للرحلة يبدو ابن فضلان وقد دفع دفعاً لأن يكون فارساً ومغامراً قروسطياً على الطريقة الإسكندنافية . من أين حصل الدكتور غيبة على هذا المتن؟

سأتوقف قليلاً وبالتطويل اللازم إذا استدعى الأمر لمناقشة هذا العمل بسبب الارتباك والخفة المتناهية ذات المزاعم العلمية ، التي أنجز بها الدكتور حيدر محمد غيبة عمله .

يذكر الدكتور حيدر محمد غيبة في مقدمته أن السيدة زوجته دفعت إليه عام 1984 كتاباً باللغة الإنكليزية للسيد ميكائيل كريكتون بعنوان :

(أكلة الأموات : مخطوط ابن فضلان عن خبرته بأهل الشمال في عام 922 ميلادية)

Michael Crichton: Eaters of The Dead, The Manuscript of Ibn Fadlan Relating His Experiences With The North Men In A.D. 922

وهو كتاب منشور عن «مؤسسة بنتام» بالاتفاق مع شركة الفريد نوف المساهمة عام 1976 [3] .

Published in 1976 by Alfred A. Knopf, Inc. 193 pages.

---

(3) إسم الناشر وسنة الطباعة مكتوبان في نص الدكتور غيبة بالعربية فقط . نحن من استخرجنا دار النشر وسنته باللغة الإنكليزية .

من المثير أننا نقرأ على الغلاف الخارجي الثاني من الكتاب ، كما ينقل د . غيبة ، التعريف التالي بالعمل :

(أكلة الأموات : الرواية الجديدة الرهيبة لمؤلف رواية «السطو العظيم على القطار»)

وهذه أولى الإشارات التي لا تدفع البتة للاطمئنان إلى طبيعة عمل السيد كريكتون ، لأنها تصفه (بالرواية) . على أن االدكتور غيبة ، كما المؤلف كريكتون نفسه ، يودّان إقناع القراء بأن العمل من طبيعة تاريخية موثوقة ، لا يرقى إليها الشكُّ ، وهو ما سنناقشه .

خلاصة الأمر أن الدكتور غيبة مقتنع من خلال قراءته وترجمته لكتاب كريكتون بالأمرين التاليين :

أولاً : أن مهمة الكاتب ، كريكتون ، اقتصرت على جمع أجزاء رسالة ابن فضلان وترجمة بعضها ، والتقديم لها والتعقيب عليها ، معتمداً في الفصول الثلاثة الأولى على مخطوط ابن فضلان كما هو مترجم من روبيرت ب . بليك Robert P. Blake وريشارد ن . فراي Richard N.Frye ومن ألبرت ستانبورو كوك Albert Burrough Cook.

ثانياً : أن المؤلف كريكتون يعتمد فيما تبقى من عمله على الترجمة النرويجية لرسالة ابن فضلان التي قام بها الأستاذ النرويجي بير فراوس-دولوس الذي جمع ما تناثر من أجزاء الرسالة[4] بلغات مختلفة ونقلها للنرويجية بين السنوات 1951 وحتى وفاته 1959 .

من هنا تبدأ الالتباسات كلها في عمل الدكتور غيبة . فهل الفصول الثلاثة الأولى في عمل كريكتون هي تلك المترجمة عن مخطوط مشهد؟ لا نحر جواباً ، رغم أن ظاهر الكلام يوحي بذلك . وإذا كان الحال كذلك فلا بأس عليه وعلينا ، فنحن ثانية في صلب عمل ابن فضلان الذي نعرف . أما إذا كان العمل التجميعي- وهو عصب الفصول الأخرى- الذي قام به الباحث النرويجي بير فراوس دولوس هو تلكم

---

(4) وأنا غير أكيد البتة ، لأسباب منهجية وعلمية ، من أن الأمر يتعلق برسالة ابن فضلان التي تعنينا هنا .

المغامراتُ العجيبةُ الغريبةُ التي لا تمتُّ إلى روح مخطوطة مشهد بصلة فإن شكاً كبيراً يحوم حول مصادره . ما هي مصادره؟ .

يذكر د . غيبة أن كلاً من كريكتون مؤلف (أكلة الأموات) والباحث النرويجي قد اعتمدا على تراجم المقتطفات الواردة في معجم ياقوت وتراجم لرسالة ابن فضلان حتى عام 1951 باللغات العربية واللاتينية والفرنسية والدانماركية والسويدية والإنكليزية ، دون أن تكون نسخة مشهد بينها[5] . ويضيف الدكتور غيبة ، في واحدة من تناقضاته الكثيرة ، أن من الغريب أن يحدث إهمالٌ لنسخةِ مشهد المنشورة في برلين بنصِّها العربي وترجمتها الألمانية سنة 1939 . ها هنا التباس ثان . من الواضح أن تراجم المقتطفات تلك ما هي إلا الفصولُ التي نقلها ياقوت عن ابن فضلان ولا شيء سوى ذلك . لأننا لا نعرف شيئاً سوى ذلك في الحقيقية قبل مخطوطة مشهد إلا نتفاً متأخرةً لا قيمة لها باللغة الفارسية .

يتلقَّف د . غيبة ملاحظةً كتبها الدكتور سامي الدهان ويذكر فيها أن هناك ورقةً أو ورقتين ضائعتين من مخطوطة (مشهد) لكي يجعلنا نعتقد أن صفحات المغامرات الطوال من (رواية) كليكتون (أكلة الأموات مخطوط ابن فضلان عن خبرته بأهل الشمال في عام 922 ميلادية) هي التي تسد مسدّ تلكم الورقتين . وفي هذا إجحاف بعيد وضرب من عدم الدقة العلمية ، فتلك الصفحات تغطِّي ، في الحقيقة ، العشرات بل المئات من الأوراق المخطوطة .

وبدلاً من مخطط الرحلة الذي نعرفه والذي يعاني ، على أية حال ، بعضاً من الخلل بسبب فقدان أجزاء من مخطوطة مشهد ، يقترح الدكتور غيبة استناداً إلى النسختين العربية-النرويجية والإنكليزية المخطط التالي :

أ: في الذهاب

1- بلاد العجم والترك

2- الروسية

(5) لا يقول لنا د . غيبة كيف توصل إلى هذه النتيجة وما هي تراجم رسالة ابن فضلان التي اعتمد عليها المؤلفان اللذان يستشهد بهما .

3- شمال أوربا وإسكندنافيا

ب: في الإياب (طريق العودة لبغداد)

1- بلاد الصقالبة

2- إقليم الخزر

واضعاً شمال أوربا وإسكندنافيا في عصب رحلة ابن فضلان ، وهو ما يظهر بالفعل في كتابه (ترجمته لكتاب كريكتون أي النص الإنكليزي) الذي تشغل الرحلة الافتراضية هذه فيه الفصول الطوال من 5 إلى 16 . وهذا الترتيب يريد ، كما يقول هو نفسُه ، التوفيقَ بين النصين العربي والإنكليزي .

ولكن ماذا لو كان نصُّ كريكتون الإنكليزي هو مجرَّد تخيلات جميلة سطرها قلم روائي بارع؟ هذا ما لا يجيب عليه د . غيبة على الرغم من أنه هو نفسه يثير الشكوك حول مصداقية النص الإنكليزي هنا وهناك متناسياً حماسه له .

لو تركنا جانباً مقدمة د . غيبة وانصرفنا إلى مقدمة كريكتون ، فإن البحث العلمي والتاريخي فيها يختلط بخيال الروائي . ففي مقطع طويل عنوانه (مصدر المخطوطة) لا ندري فيما إذا كان يتحدث ثانيةً عن أعمال المستشرقين الذين يترجمون فصول رسالة ابن فضلان التي نقلها لنا ياقوت ، أم عن مخطوط أصلي لابن فضلان . هذا الالتباس مدوِّخ بالفعل . ولولا ضيق المساحة والخشية من التطويل لناقشنا كل فقرة من فقرات هذا المقطع . سأتوقف عند البعض منها فحسب :

بعد حديث كريكتون عن مقاطع رسالة ابن فضلان في معجم ياقوت المترجمة مراراً ، يقول لنا فجأة «واكتشف جزء آخر من المخطوط في روسيا عام 1817 ، ونشر باللغة الألمانية في أكاديمية سانت بطرسبورغ في عام 1923 . ويتضمن بعض المقاطع التي سبق نشرُها من قبل ج . ل . راسموسن عام 1914 ، وقد استقى راسموسن عمله من مخطوطٍ وجده في كوبنهاغن ، ثم اختفى ، ومن مصادر مشكوك بها . كما ظهرت في ذلك الوقت تراجم سويدية وفرنسية وإنكليزية ، إنَّما عرفت بعدم دقتها وخلوِّها على ما يبدو من مادة جديدة» . إحدى الإشارات في هذا المقطع تشير إلى الورقتين المصورتين من النسخة الخطية التي اكتشفت في مدينة مشهد (طوس) الإيرانية التي تسلمهما المعهد الآسيوي للاستشراق في بطرسبورغ ، في حين أن

مخطوط كوبنهاغن ، كما يقول كريكتون نفسه ، مشكوك به ، والترجمات التي يذكرها غير دقيقة ولا تضيف جديداً . بعد ذلك مباشرة يقول : «واكتشف مخطوطان جديدان عام 1878 في مجموعة التحف الأثرية الخاصة بسفير بريطانيا السابق في القسطنطينية ، سير جون أمرسون . . وأحدهما لأحمد الطوسي ويعود تاريخه الموثوق لسنة 1047 الميلادي ، وهذا يجعله أقرب لمخطوط ابن فضلان الأصلي . . مع ذلك يعتبر الباحثون مخطوط الطوسي أقل وثوقاً من جميع المصادر ، ويتردد كثير من المؤلفين في قبول أعماله لكثرة ما فيه من الأخطاء الظاهرة والتناقضات بالرغم من أنه ينقل مقتطفات مطولة من ابن الفقيه الذي زار بلاد الشمال» . هذا المصدر ، وعلى لسان كريكتون مشكوكبه أيضاً ، ولا يبدو البتة وهو ينقل نصاً لابن فضلان وإنما يجمع أحاديث عن بلاد الشمال من مؤلفين مختلفين (ابن الفقيه مثلاً كما يقول كريكتون نفسه) .

هنا يبدو كريكتون وهو يخلّط أشد التخليط رغم نبرته الواثقة ظاهرياً . ثم يمضي للقول عن مصادر مخطوطاته : «ويقع تاريخ المخطوط الثاني لأمين الرازي بين عامي 1585 و1595 الميلاديين . وقد كتب باللغة اللاتينية وترجم مباشرة من النص العربي لمخطوط ابن فضلان كما يقول مؤلفه . ويتضمن مخطوط الرازي بعض النصوص عن أتراك الغزية وعدة مقاطع عن معارك مع «وحوش الضباب» التي لم يرد ذكرُها في المصادر الأخرى» . وهنا يحتاج المرء لقليل من الذهن الصافي لكي يميز معاني الكلام في نصٍّ الروائي كريكتون ، وهو أن الرازي ينقل (مقاطع فحسب من نص ابن فضلان) . هذا ما يقوله كذلك د . الدهان في هامش له أوردناه نحن في عملنا : «وأما في كتاب (هفت إقليم) للرازي فالتفصيل يزيد النص أهميةً وقد نقل عن مخطوطة لابن فضلان ضاعت» . نص كريكتون نفسه يوحي بأن نص الرازي يتناول جملة من القضايا ولا يتعلق برسالة ابن فضلان لوحدها . ثمة إذن تخليط جديد .

ما تبقّى من تحقيقات كريكتون من طينة المنطق نفسه : جميع الأصول التي يستند إليها مشكوك بها أو أنها تتكلم عن بلاد الشمال استناداً إلى مصادر متعددة ، لاتينية خاصة ، وليس من مصدر وحيد واحد هو ابن فضلان . ربما ذكرتْ مصادر كريكتون ابن فضلان عرضاً أو عبر مؤلف آخر يستشهد به ,ولكنّها ليس البتة مخطوطة أصلية

أخرى لرسالة الرحالة العربي غير التي نعرف، رغم أن كريكتون يريد الايحاء، بأسلوب ملتو، بأن عمله قائم على مخطوطة من مخطوطاتها. في هذا الإيحاء ثمة لعبة روائية بارعة، لا تمتُّ بصلة للبحث الرصين. وهو ما يفعله كريكتون بمهارة فائقة أربكتْ د. غيبة وآخرين من أساتذة الجامعات (كالدكتور عبد الله إبراهيم) حتى حسب كلامه دقيقاً وعلمياً وموثقاً.

لنقل في البدء كلمة عن الروائي: إنه الأمريكي (جون) ميكائيل كريكتون، روائي وسينمائي مولود سنة 1942. أنهى دراسته في جامعة هارفارد، ثم تنقل بين دراسة الأنثروبولوجي والبيولوجي، وكرَّس نفسه في نهاية المطاف للكتابة. أصدر العديد من الدراسات الأدبية وكتب العديد من الأفلام السينمائية التي أخرج أو أنتج قسماً منها بنفسه. كما كتب العديد من الروايات الخيالية أو المستمدَّة من مادة تاريخية وكان بعضُها من الكتبِ الأكثرِ مبيعاً في أمريكا:

(The Andromeda Strain - 1969) و(The Terminal Man - 1972) و(The Great Train Robbery - 1975) و(Eaters of the Dead - 1976) وهي الروايةُ التي تعنينا هنا و (Congo - 1980) و (Sphere - 1987) و (Jurassic Park - 1990) و- (Rising Sun 1992) و (Disclosure - 1993) و (The Lost World - 1995) و(Airframe - 1996) و(Timeline - 1999)، وغير ذلك[6].

يكتب كريكتون روايةً تاريخيةً لا أكثرَ ولا أقلَّ، ويشير إلى ذلك في الغلاف الثاني من كتابه. إنها روايةُ خيالٍ Fiction تاريخيةٌ على نمط روايات أمين معلوف (ليون الأفريقي، على سبيل المثال). لكن خلافاً لمعلوف الذي يهتم كثيراً بالتفاصيل التاريخية ويصوغ وفق مخطط روائي متخيل، فإن كريكتون يجمع القليل جداً من التفاصيل المستلهمة عرضاً عن بطله ابن فضلان، ويصوغ الباقي كلَّه وفق مخطط روائي مختلقٍ بالتمام.

على أنه يستخدم حيلةً روائيةً مدهشةً وهي أنه يكتب مقدمة تعريفية شبه جادة

(6) في البحث عن كريكتون استعنّا بالويب على الإنترنيت. ووجدنا الموقع الشخصي لميكائيل كريكتون وعشرات المقالات والتعليقات له وعنه، ونحن نستعين بها هنا في تحليلنا.

عن ابن فضلان ،ويعدّد فيها مصادره بطريقة جد غامضة توحي بأنه في صميم عمل تاريخي ، كما يضع في ثنايا نصه الكثير من الهوامش التي تشرح طقساً أو تقليداً إسلامياً ، مما يمنح القراءة بعداً جديداً يسعى عامداً إلى طمس الحدود بين المتخيل والواقعي .

هذه الحيلةُ الجميلةُ ، لكن الخطرةُ ، تسعى إلى اندغام لا فكاكَ منه بين الحقيقة والخيال ، والإيحاء للقراء بأنّهم في صلب واقعة تاريخية لَم يفعل هو إلا نقلها إليهم (وهو ما لم يقل كريكتون بعكسه للأسف الشديد حتى اللحظة) . حيلةُ روائي هوليوودي من طراز رفيع . لكن هذه الحيلة لم تفت على نقاده الأمريكيين الأكثرً جدية الذين وصفوا العمل في الصحافة بأنه : «كتابة متخيلة لقصة مأخوذة من سفير عربي إلى بلاط الخليفة في بغداد»[7] .

A fictionalized account taken from the manuscript of an Arabic ambassador to the court of the Caliph of Baghdad.

إن أعمال الروائي هي على حد تعبير الناقد الأمريكي دافيد لانغران David Lonergan : الورقة تروي تعدد المعاني التي سعى الروائي ميكائيل كريكتون عبرها منح أعماله مظهراً غير متخيل . التقنيات الخاصة والناجحة المستخدمة في (أكلة الأموات) قد لوحظت .

The paper chronicles the variety of means with which the novelist Michael Crichton has attempted to give his works the appearance of nonfiction. The specific and successful techniques utilized in Eaters of the Dead are noted, and the resulting erroneous classifications by the Library of Congress and subsequent cataloguers discussed.

لكن الحيلة فاتت على البعض الآخر منهم ، ممن يضربون عميقاً بالجهل بتاريخنا

---

(7) هذه العبارة لا تقل جهلاً عن جهل كريكتون بالمعطيات التاريخية ، وتفسّر الوعي الأمريكي بالتاريخ العربي الإسلامي ، فإن هذا السفير كان مبعوثاً من طرف الخليفة وليس إلى الخليفة . ننقل العبارة فحسب لأنها تؤكد على الطابع الخيالي للعمل .

العربي الإسلامي[8] .

لقد ترجم د . غيبة رواية كريكتون الخيالية ومنحنا الفرصة للاطلاع عليها ، معتقدا أنه يترجم وثيقة تاريخية . وشتان بين الاثنين .

يظهر ابن فضلان في الرواية واحداً من الشخوص الرئيسيين ، لكنه بطل يحمل جميع السمات السلبية التي ما فتئ بعض الفكر الغربي يلصقها بالعرب . ابن فضلان فيها هو رمز للعربي (لا يعرف كريكتون أن الرجل كان مولى! ومن أين له أن يعرف) . فهو جبان إلى أبعد الحدود ، ولا يمتلك روح النكتة ، مزجور على الدوام بسبب تدخلاته الفظة بما لا يعنيه ، مرتعد الفرائص»[9] ولا يريد أن يكون بطلاً» ومتزمت في تدينه بادئ الأمر ثم متناقض مع معتقداته الدينية . غبي ، لا يعرف السباحة ، مندهش من خضرة الغابات التي لا تعرفها صحراؤه . بالمقابل يبدو رجال الشمال الفايكنغ ، وعلى لسان الراوي ابن فضلان نفسه ، أشداء ، لا يخافون شيئاً ، جسورين وشجعان إلى درجة يبدو معها ابن فضلان بينهم فأراً تافهاً مختبئاً في جحره وفي أحسن الحالات ديكوراً اكزوتيكياً ممتعاً . ثمة سخرية متناهية وحطٌّ من شأن العرب في عمل كريكتون وتفكُّه فظ من نزعتهم الدينية التوحيدية[10] ، وهو أمر يدعو إلى دهشة وعلامة استفهام عظيمة على طبيعة تفكير الدكتور غيبة الذي حسب العمل توثيقاً تاريخياً ، والمزيد من الدهشة من عمل الناقد د . عبد الله إبراهيم الذي راح يحلل بحماس منهجي (آليات السرد) في تجديفات كريكتون الشخصية وسخريته من العرب ويحسبها نصاً أصلياً لابن فضلان . أليس من العجب العجاب أن تفوت سخرية مرة ، فاقعة بإشاراتها المتعالية على قلمين مثل قلمي هذين الدكتورين

---

(8) يكتب الناقد الأمريكي آدم لش « Adam Lesh » عن عمل كليكتون : «كُتب هذا الكتاب بوصفه كتاباً مدرسياً أكثر مما هو رواية . .» . وهذا خطأ فاحش كما نحاول أن نبين هنا .

This book is written more like a scholarly work than like a novel, yet it definitely tells a story,

(9) ص 194 عند د . غيبة .

(10) ص215 عند د . غيبة .

الفاضلين .

هاكم هذه المقاطع :

«قلوبكم (أيها العرب) عبارة عن كيس كبير يطفح بالأسباب»[11] في السخرية من النزعة العقلانية عند العرب .

«أنتم العرب أغبياء أكثر مّما يمكن أن يُتصوَّر»[12] .

«لا أريد أن أسمع أسئلة من أحمق»[13] أي من عربي .

«إذا لم يكن مسحوراً فلربّما أصبح عربياً إذ أنه يغسل ملابسه الداخلية وجسمه كل يوم»(14) بالسخرية من نزعة النظافة المستمرة والطهارة عند المسلمين .

وقال للجارية : لا يزال عربياً»[15] بسبب تأوه بطل كريكتون ابن فضلان بعد غسل جروحه بالماء المالح على يد فتاة شمالية .

في رواية كريكتون فإن ابن فضلان يتكلم باللاتينية ، ويتفاهم بها ، وهنا أمر كان يتوجب على د . غيبة التوقف أمامه ملياً ، ولم يفعل . لكنه إزاء تنامي وتصاعد حدة التناقضات والإشارات التي تؤكد أن العمل مصنوع صنعاً كرواية كان مجبراً على التوقف والتساؤل مرات قليلة . ففي تعليقه على ما ورد في الرواية عن مرور ابن فضلان ومشاهدته لمدينة بلغار من على ظهر قاربه من بعيد ، يقول د . غيبة : «إذا كان ابن فضلان لا يعرف شيئاً عن هذه المدينة حتى الآن ، فهذا يتناقض مع الاعتقاد بقيامه بزيارة بلغار ملك الصقالبة قبل زيارته سائر بلاد الروس وشمال أوربا . وإذا كانت زيارته لبلاد الصقالبة بعد عودته من بلاد الشمال ، فإنه يتعارض مع التقائه بأصحابه في بلاد الصقالبة بدون أي تمهيد أو إشارة إلى التئام شملهم ، إلا أن يكون حديثُه عن ذلك هو من الأجزاء المبتورة التي لم يُعثر عليها حتى الآن ، كما ألمحنا في

---

(11) ص103 عند د . غيبة .

(12) ص120 عند د . غيبة .

(13) ص153 عند د . غيبة .

(14) ص162 عند د . غيبة .

(15) ص170 عند د . غيبة .

المقدمة»[16] .

وفي هامش آخر للدكتور غيبة بصدد تعليق ابن فضلان المذهول من وجود حيوانات بحرية ضخمة يسميها الروائي على لسانه وحوش البحر ، يقول د . غيبة : «من الواضح أن وحوش البحر التي تحدث عنها ابن فضلان هي الحيتان . إنما من المستغرب أن يجهل وجودها في البحر»[17] . وعندما يجعله الروائي يمارس الجنس مع امرأة متابعاً شبق الشماليين اللامحدود ، يعلّق د . غيبة ببعض من السذاجة : «من الصعب تفسير هذا الاعتراف لابن فضلان ، وهو المسلمُ التقيُّ ، إلا إذا كانت الجارية أَمَةً مملوكةً له باعتبار التمتُّع بمثلها كان مباحاً ، أو أنه فقد بعض تقاه (. . . .) أو أن الإنسان يضعف أحياناً أمام الإغراء»[18] .

لكن الدكتور الفاضل يعلن بعد صفحات قليلة علانية شكوكه العالية بنص كريكتون فيكتب في أسفل الصفحة :

«هذه الأقوال وبعض العبارات التالية تزيد الشك في أصالة النص ، ذلك الشك الذي يشتدُّ بصورة خاصة مع بعض عبارات الفصل التاسع التي تنمُّ عن حذلقة وثقافة حديثتين»[19] .

لماذا لم يشكّ الدكتور حيدر محمد غيبة منذ البدء بأصالة النص؟ ولماذا كتب تحليلاً مطولاً في مقدمته طرح عمل كريكتون فيه وكأنه تَتِمَّةٌ تاريخية حقيقية لرحلة ابن فضلان؟ ولماذا حسب الدكتور عبد الله ابراهيم النصَّ أصلاً لابن فضلان ، رغم إشارة غامضة له بعدم أصالة بعض المقاطع فقط (انظر الهامش أدناه)؟ ثمة خلل مدمر في الثقافة العربية الراهنة يعبِّر عنه مثال هذين الدكتورين اللذين يتوجب عليهما

---

(16) ص97 عند د . غيبة .

(17) ص117 عند د . غيبة .

(18) ص147 عند د . غيبة .

(19) ص151 عند د . غيبة .

تعليمنا ، هم قبل غيرهم ، الحذر المنهجي : أحد شروط البحث العلمي[20] .

الأنكى من ذلك أن المؤلف نفسه كريكتون ، كما لاحظ مراقب فرنسي ، يريد اليوم استبعاد هذا العمل من مجموعة مؤلفاته[21] (انظر كذلك ما كتبه الناقد الأمريكي داني يي Danny Yee بهذا الاتجاه نفسه)[22] . لماذا؟ لأن المقدمة التاريخية التي كتبها بثقة على أنها تستند إلى معطيات تاريخية موثوقة ، لا تبدو مستندة إلى شيء موثوق ، وأنه ربّما يخشى الفضيحة الثقافية ، خاصة وأنه لم يقرأ ، كما هو واضح ، متن مخطوطة مشهد المترجم مراراً إلى لغات عدة تقف الإنكليزية على رأسها . إنه يكتب فنتازيا خالصة جرى إنتاجها فعلاً فيما بعد ، سنة 1999 ، بفيلم مغامرات سينمائي على الطريقة الأمريكية تحت عنوان (Thirteenth Warrior - 1999 كان هو شريكاً في إنتاجه) .

---

(20) يكتب د . عبد الله إبراهيم مثلاً : «يقول «كريكتون «الذي أعاد تركيب الأصول المفقودة لرسالة ابن فضلان (= ربما على سبيل التخيّل في بعض الفصول) بالإنجليزية اعتماداً على مقاطع تم العثور عليها بلغات كثيرة . . .» . ملاحظته القائلة «ربما على سبيل التخيل في بعض الفصول» لا تعفي أنه قد صدّق بالكامل بنص كريكتون واستند إلى مشاهد روائية كاملة وحللها على اعتبارها نص ابن فضلان . ننصح بالعودة إلى النصّ الكامل لدراسة د . إبراهيم المنشورة في موقعه على الإنترنيت . وقد سبق له أن نشرها في الصحافة العربية .

(21) هذا ما يقوله معلق فرنسي على الفيلم المنتج من روايته : «كتابه الصادر سنة 1992 : (أكلة الأموات) هو كتاب صغير من كتب المؤلف (أقل من 200 صفحة) يسعى المؤلف لسبب غامض أن يخفيه من مؤلفاته» .

Paru en 1992, EATERS OF THE DEAD est un "petit" livre pour l'auteur (moins de 200 pages), que CRICHTON cherche, pour une raison obscure, à faire disparaître de sa bibliographie.

(22) كتب المعلق الأدبي (داني يي) يوم 11 آب 1992 يقول في ملاحظة له عن الكتاب :

Apparently Crichton has disowned Eaters of the Dead and it doesn't appear in his official bibliography. I'm not sure what the reason for this is.

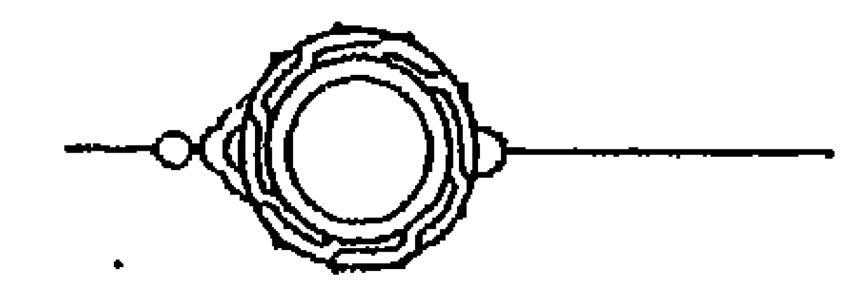
إذا ما كنا نناقش ما صنعه د . غيبة بهذا التوسع ، فلأن صنيعه مؤذ وضار بحق رحلة ابن فضلان ، ولأن هذه الصنيعة قد تجري بين أوساط القراء ، ناهيك عن دكاترة مثل الدكتور الفاضل عبد الله إبراهيم ، مجرى الحقائق التاريخية الدامغة . إن جزءاً لا يستهان به من تحليلات الدكتور إبراهيم ، الجادة والصارمة ، تستند وياللعجب إلى هذا العمل الروائي المتخيَّل ، لنقرأ : «الكتابة تلعب دوراً مهماً في تثبيت رؤاه (يقصد ابن فضلان) وتصوراته وأحكامه ، ما دام يتحرك في مجاله الثقافي ، داخل دار الإسلام . وما أن ينزلق إلى عالم الكفّار إلاّ وتتوقف الكتابة . يضيع من المخطوط ذلك الجزء الرئيس الخاص بالآخر . كأن ثمة قوة سحرية انتزعت كل ما يتصل بالآخر . لم يُعثر إلى الآن على الأصل العربي . كل ما يتصل بالآخر ، تم ترميمُه وتجميعُه ، وترجمتُه إلى اللغة العربية استناداً إلى شذراتٍ متناثرةٍ باللغاتِ اللاتينيةِ والألمانيةِ والفرنسيةِ والدنماركيةِ والسويديةِ والإنجليزيةِ وغيرها . لغاتُ الآخرِ هي التي أعادتْ إلينا وجهةَ نظرِ ابنِ فضلانَ بالآخرِ» .

وبالطبع فإنَّ إشارةَ د . إبراهيم إلى تلك اللغات هي إشارة إلى رواية كريكتون الهوليوودية . هل ثمَّة من يضحك على ذقوننا : هناك بكتابة ساخرة عن واحدٍ من رحالتنا ، وهنا بكتابة لا تقل سخريةً ومرارةً ولكن بقناع عارفٍ فحسب . سينتهي الأمر بالدكتور عبد الله إبراهيم بالشكٍّ بياقوت نفسهٍ الذي لم يستطع ، حسب إبراهيم ، تصديقَ نصٍّ ابنِ فضلانَ عن البلدان الإسكندنافية فحذفه(23)؟ . يستعيد

(23) يقول د . عبد الله إبراهيم عن ابن فضلان مستنداً في تحليله إلى رواية كريكتون : « . . . سقط (ابن فضلان) في الشرك الذي كان يحذّر الجميع منه : معايشة عالم الكفر . داهمه نوع من النسيان ، فعلى مرمى حجر من القطب الشمالي ، أُصيبت ذاكرتُه بعطب عقائدي ، لكي يندرج ضمن الآخر عليه أن ينسى ، أن يوقف عمل الذاكرة . في البداية كان نتوءاً زائداً ، مجرد فضلة ، الرقم الزائد المكمّل للمقاتلين البواسل الاثني عشر . إنه الرقم الأخير ، الرقم الثالث عشر كا مجرد وسيلة لسد نقص ، ففي المهمة التي دُفع إليها ، لا بد أن يكون ثمة أجنبي يقوم بدور تكميلي . ابن فضلان ، إصبح فضلةِ ، هو المسلم المختون كان مجرد قلفة للتغطية . ومع الوقت يتخفف من ملاحظاته الانتقادية ، بسبب الجهل التام بالأسباب وذلك ما يفضي به إلى خطأ التفسير أو سوء التأويل . وفي النهاية ، ==

د . إبراهيم النص المحذوف على يد كريكتون بالطبع . ويروح في تحليل طويل عن (غياب المتن) . سوى أن المتن ليس بضائع والله ، فالصفحات الطوال التي تقدمها مخطوطة مشهد هي (متن أكيد) ، يستحق التأمل والفحص رغم قصره وضياع بعض أوراقه . إننا لا نستغرب أن يقف القراء في موقف العجب من هذا النمط من الخطاب المتثاقف الباهر .

من هو ابنُ فضلان؟



أثبت ابن فضان لحسن الحظ اسمه : أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد ، ولم يقل لنا شيئاً آخر عن حياته ، ما عدا أنه ، كما تقول الرسالة ، مولى لفاتح مصر محمد بن سليمان . ويقول ياقوت إنه كان مولى محمد بن سليمان ثم مولى أمير المؤمنين فهو من العجم الموالي . هل ولد في العراق أم بأرض العجم؟ وما هو منصبُه في الإدارة العباسية ، وهل كتب أعمالاً أدبية غير هذه الرسالة؟ أم أن رحلته هذه لا تعدو أن تكون تقريراً من هذه التقارير التي يكتبها السفراء لدولهم؟ .

= كما سنرى ، حينما يندمج ، يستعيد وضعيته كعنصر فاعل ، بعد مرحلة الخمول الأولى ، يُقبل كمقاتل باسل ، يُسهم في إحراز نصر محقق على «الوندول» . يصبح سابع الأبطال ، يتخلص من شؤم الدور الثالث عشر ، فيسعد بالدور السابع ؛ الرقم المقدس في عالم الإسلام . ما أن يعود من دار الكفر إلى دار العهد ، إلاّ وتظهر الكتابة العربية مرة ثانية ، لتذكّر بالثغرة الشفاهية المدمرة التي لم يتمكن أحد من تخطيها إلاّ بوساطة الآخر . ولم يُشر ياقوت الحموي إلى تفاصيل الرحلة ، بعد أن أخذ عنها الشيء الكثير ، شكك في المرويات الخاصة بالصقالبة ، وأعلن براءته منها ، وعدم ضمان صحتها . وإذا صحت تلك المرويات التي عبرت إلينا خلال لغات الآخر ، وأُخذت بالاعتبار فرادة المغامرة ، ومداها الواسع ، وأحداثها ، وأثرها في شخصية ابن فضلان ، يصبح من الممكن ألاّ يُسمح بعرضها على العموم كاملة . إذ ينبغي أن تركّب صورة مشوهة للآخر . يحتمل أن ياقوت الحموي نفسه ، بعد مضي ثلاثة قرون لم يكن قادراً على تصديق أحد مصادره عن بلاد الصقالبة» . وهناك أشياء أخرى أكثر غرابة في تحليله اللاحق لا مجال لها هنا .

يخيل إلينا أن سفيراً مبعوثاً إلى أقاصي الأرض كان يجب أن يمتلك الكثير من الحكمة والحنكة ، لذلك نظنُّ أنَّه كان في الأربعينات من عمره عندما كُلِّف بمهمَّته . ويخيَّل إلينا أنَّ بعثةً مثلَ بعثته كانتْ تستلزم رجلاً ذا ثقافة معقولة ، وهو ما نظنُّ حالَه ، وهو ما يدلُّ عليه وصفُه المتأنّي للبلدان والتقاليد التي شاهدها عياناً . ونعتقد أن هيئته وبزَّته كانتا في غايةِ الرصانةِ ، وأنَّه اختير لمقابلة ملوكِ الصقالبةِ والخزرِ والروسِ لأنَّ شكلَه كان مقبولاً بالنسبة إليهم وقريباً من أشكال الشعوب التي زارها .

لم يَرِدْ توثيقٌ لحياةِ ابنِ فضلانَ في أيٍّ من المراجع التي بين أيدينا ، بالضَّبْطِ مثلما لا توجد إلا أقلُّ التفصيلاتِ عن حياة المقدسيِّ صاحبِ (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) الباهرِ ولا حياة الرحالة أبي دُلَف . وفي ذلك إشارة واضحة الآن إلى اللامبالاة التي كانت تميِّز نظرة الثقافة العربية إلى أعمال الرحالة العرب ، وعدم اعتبار الكتابة في أدب الرحلة فناً رفيع المستوى يستحقُّ إدراجَ مؤلفيه من بين مصنِّفي ضروبِ الأدبِ الأخرى المبجَّلين والمُؤَرِّخِ لهم بأكثرِ التفاصيل وأدقِّها (الفقهاء ، الشعراء ، الأطباء ، النحويين . .إلخ) .

تقع أهميَّةُ رحلةِ ابنِ فضلانَ في أنَّها تُزوِّدُ التاريخَ العالميَّ بشذراتٍ مهمَّةٍ عن أنماطِ معيشةِ شعوبٍ قلَّما سُجلت . إنَّها تسدُّ ثغرةً تاريخيةً في هذا المجالِ وتُعتبرُ رائداً في الإشارة لتاريخ الشعوب الصربيَّةِ ، والروس منهم على وجهِ الخصوص .

لقد قيل الكثيرُ عن هذه الرحلةِ وتُرجمت أكثرَ من مرةٍ لجميعِ اللغاتِ الأساسيَّةِ اليومَ في العالم . ونودُّ هنا أن نشير إلى أمرين اثنين :

١ - علاقة العرب بالآخر:

لا تبدو علاقةُ العالمِ العربيِّ ، أو أقلُّها ثقافةُ الناطقين باللغةِ العربيةِ من عربٍ وغيرِ عربٍ ممَّن كانوا يستخدمون العربية في حضارةٍ كانت هذه اللغة بها شيئاً سامياً وضرورياً ، بمثل استلابها هذا اليوم مع الآخر ، وهو ما تبرهنه رحلةُ ابنِ فضلانَ . لم يكنْ الاختلافُ البديهيُّ بين الأنا والآخر ليتصاعد إلى المستوى الموصوفِ في كتاباتِ البعضِ من الباحثين العربِ المعاصرين ممَّن يصفون العلاقةَ مع الحضاراتِ الأخرى بمنطقِ الحذرِ والرِّيبةِ ، بل إنَّ ثنائيةً نهائيةً ومطلقةً بين (دارِ الإسلامِ) و(دارِ الكفرِ) لم

تكنْ تشتغل في الواقع العمليِّ كما تشتغل على الصعيدِ النظريِّ البحتِ ، مثلُها مثلُ الكثيرِ من المفهوماتِ السائدةِ الأخرى . هذا ما تبرهنه الهجرةُ واسعةُ النطاقِ من طرفِ جغرافيين وعلماءِ فلك هنود ، وخزّافين صينيين وغيرِهم ، قادمين كلُّهم من دارِ الكفرِ (الهند) و(الصين) للإقامة في (دارِ الإسلام) ، بغداد العباسية . بإمكاننا الآن تعْدادَ العشراتِ من أسمائهم . المخطط الذي يبني عليه البعض تحليلاتهم المعاصرة ، بشأنِ هذه الثنائيةِ ، يبقى من طبيعةٍ تلفيقيَّةٍ محضٍ .

على العكسِ من ذلك يبدو ابنُ فضلانَ وصحبُه ، وهو في موقفِ الواثقِ ، إلى درجةٍ كان يأمر بها وينهي ملكَ الصقالبةِ نفسَه : « وبدأتُ فقرأتُ صدرَ الكتابِ فلمَّا بلغتُ منه «سلامٌ عليكَ فإنِّي أحمدُ إليكَ الله الذي لا إله إلا هو» ، قلتُ : رُدَّ على أميرِ المؤمنين السلامَ ، فردَّ وردُّوا جميعاً بأسرِهم» . وثوقُ قادمٍ من ترسُّخِ وقوةِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ في العالمِ القديمِ . ومثلما لا يشعر الأمريكيُّ اليومَ بالهيبةِ من حضورِ الآخر ، فلم يكن العربيُّ والمسلمُ ليعانيان من هذا الشعور .

٢- هجرة الأيدي العاملة تتابع مراكز الثروة:

تغدو العواصمُ الغنيَّةُ الكبرى ، في لحظاتِ الازدهارِ الحضاريِّ ، محطاتٍ لقادمين من مختلفِ أصقاعِ العالم يبحثون عن لقمةِ العيشِ . إنَّ تجمّع الثرواتِ في بقعةٍ ما يعني من بين ما يعني ، أنَّ تلك العواصمَ قد صارتْ موطناً لتجمُّع كمياتٍ كبيرةٍ من الذهبِ . وهو مانراه في عواصمِ الأرضِ اليوم : فرنسا ، ألمانيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، سويسرا . .إلخ التي تستقطب المزيدَ من المهاجرين من مختلفِ التخصُّصاتِ . إنَّ القاعدةَ العامةَ في التاريخ الاقتصاديِّ هي أن هجرةَ الأيدي العاملةِ تتابع مراكزَ انتقالِ الذهب : رمز الثروة . هذا هو حالُ بغدادَ في العصورِ العباسيَّةِ المزدهرةِ التي كان وضعُها يشابه تماماً العواصمَ الثريَّةَ في وقتنا الحالي . يشابهه تماماً حتَّى بالتفصيلاتِ الأكثرَ دقَّةً . فإنَّ وجودَ تجمُّعاتٍ وأسواق لجاليات أجنبيةٍ مثلِ الهنودِ والصينيين والعربِ في فرنسا ونيويورك اليومَ كان له مثيلٌ في (سوق خضر) لباعةٍ وصنَّاع الخزفِ والغضارِ الصينيِّ في بغدادَ العباسيَّةِ ، وفي الأعدادِ المتزايدةِ من الهنودِ المشتغلين في حقولِ التنجيمِ والرياضياتِ ، والبيزنطيين المشتغلين في حقولِ

الصناعاتِ الدقيقةِ كالإسطرلابِ (مثل بسطلوس المذكور لدى ابن النديم) ، ناهيك عن المزخرفين والخطاطين (مثل ياقوت المستعصمي الرومي ، البيزنطي) . كانت هناك كذلك ، كما نعلمُ ، حاجةٌ متزايدةٌ للمترجمين ، ليس فحسب ممن ينقلون كتبَ الأمم الأخرى إلى العربية ، ولكنْ ممَّن يقومون بدورِ السفراءِ الدبلوماسيين بين الإمبراطوريَّةِ الإسلاميةِ وما يجاورها من الدولِ . هكذا كانتْ تتقاطر على العاصمةِ مختلفُ اللغات والتقاليد والشعوب ، وتقيم في بغدادَ بحثاً عن لقمة العيش .

وهذا هو ما يفسِّر لنا عنصراً أساسياً من رحلة ابنِ فضلانَ التي تعنينا هنا ألا وهو تشكُّلها من وفدٍ يتكوَّن من أربعةِ أشخاصٍ هم[24] :

1- سوسن الرسي الذي يبدو من نسبته الرسي أنه من بلاد الروس .

2- بارس الصقلابي ويدلُّ اسمُه بوضوح على أنَّه سُلافيٌّ .

3- تكين التركي : وهو تركيٌّ من دونِ شكٍّ يجيد لغاتِ الأتراكِ التي يمرُّ الوفدُ ببلادِها في طريقه إلى الفولغا ، وكان يعمل حداداً في خوارزم .

4- أحمد بن فضلان الذي كان رئيساً للوفدِ وكان يجهل اللغاتِ الأجنبيَّةِ كما يقول هو نفسُه ، إلا أنَّه لم يكنْ عربياً البتَّةَ فهو أحدُ الموالي ، وربَّما كان من أصل فارسيٍّ . وكان مولى لمحمد بن سليمان بن المنفق أبو علي الكاتب الذي فتح مصرَ وشتَّت آل طولون ودخلها سنة 292 هـ وقتل سنة 304 هـ . على أنَّ كونه مولى لا يعني ، كما نرى ، أنَّه كان يتقن العربيَّةَ لوحدها ، رغم تبحُّره بها ، ولعلَّه كان يتقن لغةَ أجداده .

لا يبرز ابنُ فضلانَ كبطلٍ رئيسيٍّ[25] في الرحلةِ إلا لأنَّه كتب الرحلةَ ببساطة ، وهو لم يُجْرِ طمسَ رفقتِه الآخرين لأيِّ سببٍ مُتَعَمَّدٍ أو محسوبٍ . العكسُ تماماً فلولا رحلتُه لما عرفنا عن أولئك أيَّةَ شَذْرَةٍ . إنَّ كتابتَه للرحلةِ ، في الغالبِ ، لم تتمَّ لكي يبني لنفسِه مجداً أدبياً ، ولا لكي يعيد الاعتبارَ لنفسِه كما يقول البعضُ ، خاصةً وأنَّنا لا نعرفُ له مؤلَّفاً آخر غيرَها . لقد كان سفيراً وحسب سجَّل لنا ملاحظاتٍ قيِّمةً

---

(24) الملاحظات عن الأشخاص الأربعة مستقاة من د . الدهان .

(25) ملاحظاتنا التالية المتعلقة بشخص ابن فضلان وموقفه من رفقته هي وجهة نظر مغايرة تماماً لبعض أفكار د . عبد الله إبراهيم بشأن الرجل ورحلته .

عمّا شاهد ، البعضُ منها دقيقٌ تماماً والآخرُ أقلُ دقّةً .

إنَّ قراءةَ ابنِ فضلانَ تمنحُ متعةً نادراً ما يلتقيها المرءُ في عملٍ من النوعِ الأدبيِّ نفسِه ، لأسبابٍ سيكتشفها القارئ لوحدِه عندما يُشْرِعُ بقراءةِ العملِ .

أي مسار اختط ابن فضلان؟

إذا ما تتبّعنا الأماكن والمدن التي يذكرها ابن فضلان ، فسوف نسجلُ أنّ مسار الرحلةِ كما هي بين أيدينا الآن هو بلاد : العجم والترك - الصقالبة - الروسية - الخزر .

وقد أثار هذا المسارُ الكثير من النِقاشِ ، فقد كان يتوجّبُ الحديث عن بلادِ الخزر قبل الحديثِ عن الروس لأنّ الطريق إلى الروس يمرُّ أولاً بالخزر ، هل ضاعَ شيء من المخطوطة ، كما يقولُ د . الدهان ، أم أنّ ابن فضلان نفسه لم يكن مهتمّاً بأمرِ تسجيل شؤون الروس والخزر مثل اهتمامه بالصقالبة هدف رحلته ، وأنه بالتالي سجّل انطباعاته كيفما اتفق عن ذينيك البلدين ، أم أن مخطوطة مشهد نفسّها تعاني من خلل منطقيّ ما بسبب ناسخها أو تلف جزء منها . وإذا صحّتْ هذ الفرضية ، فهل كانت النسخةُ التي وقعت بين يديّ ياقوت تعاني هي أيضاً من الخلل نفسه؟ لا أظنّ ، وفي يقيني فإن ابن فضلان قد كتب المخطوطة بهذا الشكل الذي نعرفه ، مُدرِجاً انطباعات وقصص رآها أو سمعها في البلدين المعنيين . ولم يزُرْ البتّة البلدان الإسكندنافية كما يزعم الكاتب الهوليوودي كريكتون ومثله د . غيبة وتابعهما بذلك ، على عجل لا يليق بالثقافة د . عبدالله إبراهيم ، ولو أنه فعل وزارها لنقل مَنْ نقل عنه شذرة صغيرة ، أعني ياقوت والقزويني ، خاصة الأخير المولع بالغرائب من كلّ نوع .

هجرة الأيدي العاملة تتابع مراكز الثروة:

إن صراعاً كامناً كعلّةٍ ضرورية ، وأن تناقضاً وجودياً نهائياً ، بين الأنا والآخر ، لم يكونا موجودين ، ثمة بدلاً منهما الكثير من الانفتاح ، وهذا الانفتاح بالأحرى هو

العلّة الضرورية والمحرّك الداخلي لأيّة حضارة في لحظاتِ ازدهارها . وتعبّر خير تعبير عن هذا الانفتاح مُرداتُ المطبخ العباسيّ التي قلما نلتقي فيها بطبيخ محليّ تام الأصالة . لقد اختلطت مفردات المطبخ الهنديّة بالفارسيّة بالعربيّة أشدّ الاختلاط . الكلُ يأكل على مائدة الكلّ في المأدبة نفسها وإن بصعوبات حقيقية في بعض الحالات بالطبع . يتخذُ البعضُ من هذه الصعوبات الطبيعيّة قاعدة لتفسير العلاقة بين الأنا والآخر بكثير من العَسّفِ .

سوئ أن جماعات العالم القديم وثقافاته ، الأكثر والأقل تطوّراً ، كانت تعاني من انكماشات على الذات لأسباب منها ضيّقُ فُسحة الاتصال وصعوبة المواصلات . لم تكن مشكلةُ الهويّةِ بمعناها الراهن مطروحة (فكرة الهويّة بمعناها هذا هي اختراعُ ثقافيّ معاصرٌ) ، وربّما كان شيءٌ يشابهها يحضر لأسباب تتعلق بنظام القرابة ومواريث الأرض والنظام الاقتصادي لجماعة من الجماعات الساعية لتحقيق اكتفاء ذاتيّ . الآخر بعيدُ في الجغرافيا ، لذا فهو غامض ومجهول وسحريّ وموطن للخرافات . هذا النوع من إعلان (الغرابة) عن الآخر هو الذي كان مهيمناً ، وليس تلك التساؤلات ذات الطبيعة الفكرية المعقّدة عن علاقة الأنا بالآخر . كلما ضرب الآخرُ في الأقاصي والمجاهيل كلما تصاعدت وتيرة الحكايات غير الدقيقة عنه . هذا السبب البديهيّ لا صلة رحم له ، بالضرورة ، بمشكلات الأيديولوجيا : (دار الكفر) و(دار الاسلام) .

إن انفتاحاً مذهلاً ، يَصِلُ إلى درجة الاحترام للآخرين المختلفين كان يحكم علاقة دار الاسلام بالحضارات الوثنية العريقة ، الهندية والصينية خاصة (وهو ما يشرحه د . عزيز العظمة في أحد كتبه «العرب والبرابرة») . الأنا في الحقيقة متعدّدة والآخر مندمجٌ بها ، وهو ما تبرهنه طبيعةُ الوفِد المُرافق لابن فضلان .

شاكر لعيبي

أبو ظبي 12 أيلول 2002



بغداد

النهروان

الدسكرة

حلوان

قرميسين

همذان

ساوة

الري (قرب طهران اليوم)

خوار الري

سِمنان

الدامغان

نيسابور

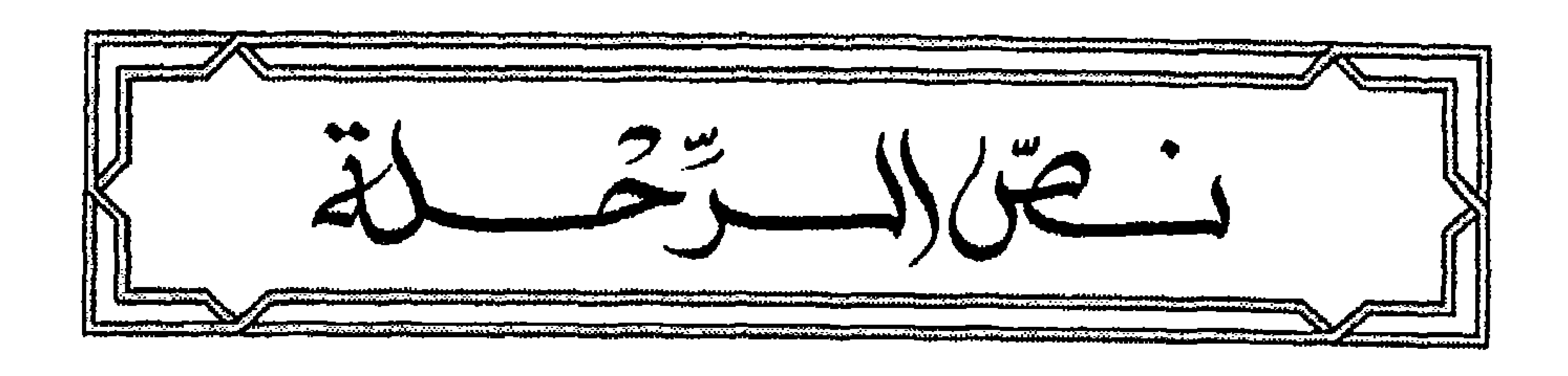
سرخس

مرو

قشمهان

آمل

آفرير
بيكند
بخارا
خوارزم
الجرجانية
جيت
بلاد الصقالبة
الروسية
الخزر .



قال أحمد بن فضلان :

لمّا وصل كتابُ ألْمش بن يلطوار[1] ملك الصقالبة[2]

(1) في أصل مخطوطة (مشهد) الذي اشتغل عليه الدكتور سامي الدهان نقرأ «الحسن بن بلطوار» بالباء ، وفي إحدى أوراقها «المش بن شلكي صهر الأتراك» ، وعند ياقوت الحموي الذي سيستعير مقاطع إضافية من الرحلة نقرأ «كتاب المس بن شلكي يلطوار» . ويرى بعض المستشرقين أن يلطوار ربما كان فلاديمير أي ملك الفولاذ . أما الباحثون الذين ينقل عنهم د . دهان فبعضهم يرى أنه ألب ايلطوار ، وايلطوار وبلطمار. وقال فرمان إن من ملوك التتر ملكٌ يسمّى «ايدار» ، ويضيف أن ملك الروس على الفولغا كان اسمه ايكور Igore وقد صحّفه العرب . وقال برتولد لأن لقب ملك البلغار بلطلطون-Wal-dawacفأصبح ألب ايلطوار .

(2) الصقالبة : هم السلافيون وكانت عاصمتهم (بلغار) على نهر الفولغا الذي يجري في بلاد روسيا ويصب في بحر قزوين ، والعرب تسميه نهر (إتل) . وآثار مدينة بلغار توجد بالقرب من القرية المسماة بلغار سكوي ، وهي حوالي 115 كلم جنوب مدينة قازان على بعد 7 كلم من ضفة نهر الفولغا الشرقية . نقدم هنا ملخصاً تاريخياً لتاريخ السلاف حتى السنوات التي قام بها ابن فضلان برحلته سنة 921م : في نهاية القرن السابع الميلادي وصلت الهجرات السلافية إلى ضفاف الأدرياتيك . ويومها كانت الشعوب السلافية المختلفة المنقسمة بين السلاف الشرقيين والسلاف الغربيين ==

إلى أمـــير المؤمـــنين المقـــتدر[3] يسـألـــه فيـــه البعـــثة إليـــه ممـــن يفقّهـــه في

== مـازالت تعيش حيـاة التجوال والترحال حتى اللحظة التي امتلكت فيـها نظاماً سياسيـاً ، وتبنت المسيحية إما بشكل عفوي أو تحت تأثير الجرمانيين أو البيزنطيين . إن السلاف الشرقيين في روسيا والسلاف الجنوبيين في البلقان (ما عدا الكرواتيين) لا يشكلون جزءاً من المجموعة الغربية ذات الثقافة اللاتينية ، بل ينتمون إلى مجموعة أوربا الشرقية ، ويجب أن يدرسوا بالتالي على حدة . قامت في القرن التاسع بين القبائل السلافية المختلفة (وكانت في طور اختيار أماكن استقرارها النهائي) منافساتٌ مسلّحة قادت إلى جرمنة تلك القبائل . وبدءاً من هذا الوقت فإن تاريخهم سيختلط بتاريخ المملكة الألمانية . إن أجنحة السلاف التشيكية والبولوندية ، على سبيل المثال ، تستحق انتباهةً خاصةً بسبب نشاطها السياسي والثقافي ، بينما بدا سلاف الب Elbe ضعفاء من الناحية السياسية خاصة . في أراضي بوهيميا Bohèmeومورافيا Moravie كان هناك نشاط سياسي ملحوظ . وفي النصف الأول من القرن السابع الميلادي أسس الإفرنجي (أي من مملكة الفرنجة) سامو Samo مملكةً امتدت إلى ماوراء بوهيميا ، ولكنها اختفت باختفائه سنة 658م . ومنذعصر شارلمان كانت أراضي بوهيميا ومورافيا مرتبطة بإمبراطورية الفرنج Francs بصلات واهية . في القرن التاسع الميلادي ، وتحت سيطرة الأمير المورافي راتسلاف Ratislav (846-870) ، فإن مملكة كبيرة ضمت سلوفاكياSlovaquie إضافة الى بوهيميا ومورافيا قد امتدت بعيداً حتى حدود الب Elbe والسال Saale شمالا والى تيشتزا Tiszaجنوباً . هكذا وجد سلاف الغرب أنفسهم متجمهرين في دولة قومية واحدة نقل المسيحيةَ إليها ، في عصر راتسلاف ، المبشرون الألمان القادمون من سالزبورج Salzburg وباسو Passau . سنة 845 م فإن 14 سيداً تشيكياً قد عُمِّدوا باسم راتيسبون Ratisbonne . هنا سينفجر نزاع خطير بين المبشّرين . راتسلاف الذي كان كارهاً للعقلية الألمانية طلب من إمبراطور الشرق ميشيل الثالث Michel IIأن يرسل له بضعة مبشرين . وهكذا بُعث له من سالونيك راهبين اثنين يمتلكان ثقافة رفيعة المستوى هما سيريل Cyrilleوميتود Méthode ، ودخل الاثنان بدورهما بنزاع مع الأساقفة الألمان الذين رأوا فيهما منافسين خطرين . وبدأ الراهبان يترجمان الإنجيل الى اللغة السلافية ويقومان بأداء الطقوس الكنسية باللغات الشعبية . سنة 885 فإن التأثير الألماني كان قوياً في بوهيميا والتقاليد اللاتينية كانت مستخدمة في طقوس الكنيسة . كان سلاف الغرب يتطلعون إلى روما والغرب . من جهته دخل الإمبراطور أرنولف Arnoulf بصراع مميت ضد سواتوبولك Swatopulk خليفة ==

الدين[4] ، ويعرِّفه شرائعَ الإسلام ، ويبني له مسجداً وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته ، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له ، فأُجِيْبَ إلى ما سأل من ذلك .

وكان السفير له نذير الحرمي[5] ، فندبت أنا لقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدى

== راتسلاف داعياً الهنغاريين لمساعدته . المملكة المورافية الكبيرة كانت تتهاوى تحت ضرباتهم سنة 906 . انظر ملاحظة أخرى في هوامش فصل ابن فضلان المكرّس للصقالبة .

(3) المقتدر : هو أبو الفضل جعفر بن الخليفة المعتضد العباسي . تولّى الخلافة بعد أخيه المكتفي بين سنة 295 هـ – 874م (ولم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره) وسنة 320 هـ– 899م عندما مات مقتولاً . كان سمحاً كثير الإنفاق ، وأكثر من الخلع والصلات وكان في داره أحد عشر ألف خادم ، وكانت خزينته بادئ الأمر مليئة بالجواهر النفيسة ، على أن دولته كانت تعانى من الفوضى لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، وهو مشغول بلذّاته فخربت الدنيا في أيامه وخلت بيوت المال ، وقد خلع وأعيد وقُتل ، ومكثت جثته مرمية على قارعة الطريق .

(4) يذكر الدكتور الدهان أن البعض يرى أن الصقالبة قد دخلوا الإسلام قبل هذا التاريخ ، و ينقل الدكتور حيدرمحمد غيبة عن الدهان عن شيخ الربوة في (نخبة الدهر) موافقته ابن فضلان في هذه النقطة ، ويذكر أن ياقوت يقدّر إسلامهم في عهد المقتدر ، ويقول إنه «لم يقف على السبب في إسلامهم» . وإنما من المرجّح ، والكلام لغيبة ، أن يكون من أسباب ذلك التقرب من دولة الإسلام ذات القوة والبأس للاستقواء بها وحمايتهم من اعتداءات ملك الخزر الذي اعتنق اليهودية وأرهب شعب الصقالبة بهجماته المتكررة .

(5) يبدو أن المقتدر سبق وأن عيَّن نذير الحرمي سفيراً له في بلاد الصقالبة ، وكان ممن توسَّط بين ملك الصقالبة وبين الخليفة من أجل إرسال البعثة برئاسة ابن فضلان . د . غيبة .

إليه والإشراف على الفقهاء والمعلمين[6] وسبّب[7] له بالمال المحمول إليه لبناء ما ذكرناه وللجراية[8] على الفقهاء والمعلمين على الضيعة المعروفة بأرثخشمثين[9] من

(6) أمّا نصُّ ياقوت الحموي في (معجم البلدان) الذي يبتدئه بالقول : «وقرأت رسالةً عملها أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة ذكر فيها ما شاهده منذ انفصل من بغداد إلى أن عاد إليها» فيقول نقلاً عن ابن فضلان : «لمّا وصل كتاب ألمس بن شلكي بلطوار (يلطوار : في نصنا) ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله يسأله فيه أن يبعث (البعثة : في نصنا) إليه ممن يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام ويبني له مسجداً وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة في جميع (له في : في نصنا) بلده وأقطار (وجميع : في نصنا) مملكته ويسأله بناء حصن متحصن (يتحصن : في نصنا) فيه من الملوك المخالفين (له : في نصنا فحسب) ، فأجيب إلى ذلك (ما سأل من ذلك : في نصنا) . وكان السفير له نذير الحرمي ، فبدأت (فندبت : في نصنا) أنا بقراءة (لقراءة : في نصنا) الكتاب عليه وتسليم ما أهدى إليه والإشراف من (على : في نصنا) الفقهاء والمعلمين» .

لا توجد لدى ياقوت كلُّ العبارة حتى الكلمة ابن الفرات .

(7) سبَّب له أي جعل له وسيلة . ويبدو أن المقتدر قرر إهداء مبلغ من المال للملك الصقالبة لكي يبني مسجداً وينصب منبره ويشيد الحصن . وقد حدَّد المبلغ في رسالة وجهها للملك . ويبدو كذلك أن هذا المبلغ كان سيقتطع من فيء قرية بأرثخشمثين . سيذكر ابن فضلان ، فيما بعد ، أن فشل البعثة في تدبير المال من القرية المذكورة كان سبباً من أسباب غضب ملك الصقالبة .

(8) الجراية : أي الصرف على الفقهاء والمعلمين .

(9) بأرثخشمثين : قرية بين الجرجانية وخوارزم من أراضي تركستان . ذكر ياقوت أنها مدينة كبيرة ، ولعلّها توسَّعت توسُّعاً عظيماً في عصره بعد ثلاثة قرون . ويرى المستشرق فراي أنها Artahusmitan . أنظر د . الدهان .

أرض خوارزم[10] من ضياع ابن الفرات[11] .

(10) خوارزم : منطقة تاريخية تقع في بلاد ما وراء النهر في آسيا الوسطى على ضفاف نهر أموداريا (جيحون) في أراضي جمهورية تركمنستان وأوزبكستان ، قال عنها ابن بطوطة : « إن خوارزم تعتبر أعظم وأهم المدن التركية ، فهي غنية في جمالها ، وتحتوي على أسواق رائعة وشوارع فسيحة وعدد غير محدود من المباني المشيدة» ، بينما ذكر ياقوت الحموي بأنه لم ير في حياته أبدا بلدة تزدحم بالسكان مثلما في خوارزم ، فهي عبارة عن صفوف متراصة من القرى ، ترتبط الواحدة منها بالأخرى ، وفيها كثير من محال الإقامة والقصور التي يصعب أن تجد فيها مكاناً غير مزروع ، ويعتقد بأنه لا وجود لأي مكان آخر في العالم بأسره يمكن أن يكون بمثل هذه الكثافة السكانية العالية علاوة على غناها ووفرة ما تحتويه . فتحها المسلمون في القرن السابع الميلادي بقيادة القائد قتيبة بن مسلم الباهلي سنة (39 هـ) ، وفي مابين القرن الحادي عشر والثالث عشر الميلادي حكمتها سلالة مستقلة تعرف بالسلالة الخوارزمشاهية . بعد ذلك خضعت لسلطان المغول والتيموريين ثم أصبحت قلب «خانية كيفا» . و(خوار) معناها اللحم و(رزم) معناها الخبز .

(11) ابن الفُرات هو أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن حسن بن الفرات . كان وزيراً للخليفة المقتدر بالله بن المعتضد بالله ، وُزِّرَ له ثلاث دفعات أولها سنة (276) هـ ، ولم يزل وزيره إلى أن قَبَضَ عليه سنة (289) هـ ونكبه ونهبَ داره وأمواله ، واستغل أملاكه إلى أن عاد إلى الوزارة الثانية سبعة آلاف ألف دينار . عاد إلى الوزارة سنة (304) هـ وخلع عليه الخليفة سبع خلع وحمل إليه ثلاثمائة ألف درهم لغلمانه ، وخمسين بغلاً لثقله وخادماً وغير ذلك ، ولم يزل في وزارته إلى أن قبض عليه سنة (306) هـ ثم أعيد إلى الوزارة سنة (311) هـ وكان يوم خروجه من الحبس مغتاظاً ، فصادر أموال الناس ، وأطلق يد ابنه المحسن فقتل حامد بن العباس الوزير وسفك الدماء ولم يزل على وزارته إلى أن قبض عليه سنة (312) هـ ، وكان يملك نحو عشرة آلاف ألف دينار أي عشرة ملايين دينار ، وكان يستغل من ضياعه في كل سنة ألفي ألف دينار (مليونين) وينفقها . قتل نازوك صاحب الشرطة أبا الحسن بن الفرات بأمر الخليفة سنة (312) هـ . وكان مولده سنة (241) هـ ، وكان عمر ابنه المحسن بن أبي الحسن بن الفرات يوم قتل ثلاثاً وثلاثين سنة .

وكان[12] الرسول إلى المقتدر من صاحب الصقالبة رجل يقال له عبد الله بن باشتو الخزري[13] والرسول من جهة السلطان[14] سوسن الرسي[15] مولى نذير الحرمي[16] وتكين التركي وبارس الصقلابي[17] وأنا معهم على ما ذكرت فسلّمت إليه الهدايا له ولامرأته ولأولاده وإخوته وقُوّاده وأدوية كان كتب إلى نذير يطلبها[18] .

---

(12) من هنا يبتدأ نص ياقوت في (معجم البلدان) المستعار من ابن فضلان .

(13) عبد الله بن باشتو الخزري : هو سفير ملك الصقالبة للخليفة . وحسب مصادر د . غيبة فإنه «رجل مِلٌّ وعنيف ومفرط في الكلام» . ولا يقول لنا من أين جاء بهذه المعلومة .

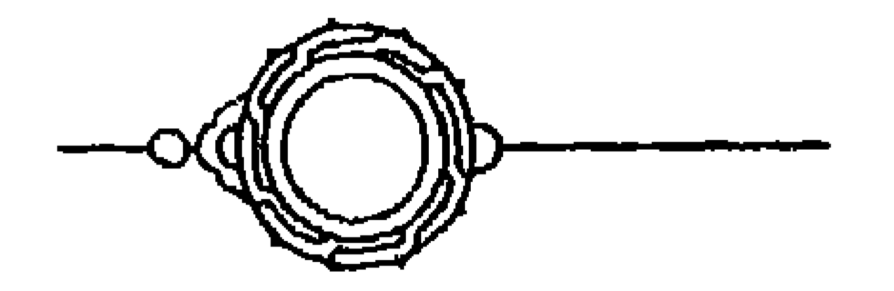
(14) لا يُحدِّد ابن فضلان من هو هذا الرسول ، ولعلَّه حاكم خراسان وما يتبعها من مناطق شمال الدولة الإسلامية يومذاك .

(15) سوسن الرسي : لا نعرف من هو هذا الرجل ، ويخمن الدكتور الدهان بأنه حاجب المكتفي . سمِّيَ نسبة إلى نهر الرس .

(16) نص ياقوت الحموي في (معجم البلدان) : «وكان الرسول من جهة السلطان سوسن الرسي مولى نذير الحزمي» .

(17) كان تكين وبارس مرشدين للبعثة . وبارس هو حاجب غلام إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان (سلطانها) ، ويقال إنه هرب من مولاه فنزل العراق بعدة هائلة ، والخليفة إذ ذاك المقتدر ، ولم يكن بحضرة السلطان جيش مثله . وتؤيد هذه الرواية كما يقول د . غيبة أن السلطان هو حاكم خراسان .

(18) يبدو أن الهدايا هذه كانت مرسلة للسلطان وحاشيته ، وليست الهدايا المرسلة إلى ملك الصقالبة . من المفيد ملاحظة أن السلطان كان قد طلب أدوية كذلك من بغداد .



فرحلنا من مدينة السلام[19] يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وثلاثمئة[20] فأقمنا بالنهروان[21] يوماً واحداً ، ورحلنا مجدين[22] حتى وافينا الدسكرة[23] فأقمنا بها ثلاثة أيام ، ثم رحلنا قاصدين لا نلوي على شيء حتى صرنا إلى حلوان[24] فأقمنا بها يومين .

وسِرْنا منها إلى قرميسين[25] فأقمنا بها يومين ، ثم رحلنا فَسِرْنا حتّى وَصَلنا إلى هَمَذان[26] فأقمْنا بها ثلاثة أيام .

ثم سرنا حتى قدمنا ساوة[27] فأقمنا بها يومين ، ومنها إلى الري[28] فأقمنا بها

---

(19) مدينة السلام : هي مدينة بغداد .

(20) وهذا التاريخ يوافق 21 حزيران (يونيه) سنة 921 الميلادية . عبارة ياقوت في (معجم البلدان) التي ينقلها عن ابن فضلان هي : «فرحلنا من مدينة السلام لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر 309» ويضيف : «ثم ذكر ما مر له في الطريق إلى خوارزم ثم منها إلى بلاد الصقالبة ما يطول شرحه ثم قال : . . .» يقصد ابن فضلان بالطبع .

(21) النهروان هي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي .

(22) مُجِدٌّ : مثابر ونشيط .

(23) الدسكرة : قرية كبيرة بنواحي نهر الملك ، غربي بغداد .

(24) حلوان : في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد .

(25) قرميسين : تعريب كرمان شاه .

(26) همذان : مدينة في بلاد فارس ، جبلية .

(27) ساوة : مدينة حسنة بين الري وهمدان حسب ياقوت .

(28) الري : مدينة قرب طهران .

أحد عشر يوماً ننتظر أحمد ابن علي أخا صعلوك[29] لأنه كان بخُوَار الري[30] .

ثم رحلنا إلى خوار الري فأقمنا بها ثلاثة أيام ، ثم رحلنا إلى سمنان[31] ثم منها إلى الدامغان[32] صادفنا بها ابن قارن[33] من قبل الداعي[34] ، فتنكَّرنا في القافلة ،

---

(29) أحمد ابن علي أخا صعلوك : هو أحمد بن علي صعلوك ، قُلِّد أعمال المعاون أي قائد الأمن أو الشرطة بأصبهان وقُم وكان يلي الري . دهان .

(30) خوار الري : مدينة كبيرة من أعمال الري ، بينها وبين الري نحو عشرين فرسخاً .

(31) سمنان : من بلاد الجبل شمالي إيران . ولا يتوجب الخلط بينها وبين سمنان ، وهو اسم لوادٍ عربي ، بفتح أوله على وزن فعلان : وادٍ من أهم أودية منطقة الزلفي ، فيه نخيل ومياه ، وينحدر سيله من مرتفعات جبل طويق متجهاً إلى الغرب ويتفرَّع قبل الحيطان إلى فروع عدة . وسمنان ماء قديم ومنهل من المناهل الجاهلية واسمه لم يتغير منذ العهد الجاهلي وإلى الآن .

(32) الدامغان : وهي قصبة بلاد قومس .

(33) ابن قارن : يقول البلاذري في (فتوح البلدان) : « وكانت مدينة حمص مفروشة بالصخر ، فلمَّا كانت أيام أحمد بن محمد بن أبي إسحاق المعتصم بالله شغبوا على عاملهم الفضل بن قارن الطبري أخي مازيار ابن قارن ، فأمر بقلع ذلك الفرش فقلع» . ويرد اسم أحد تلامذة الرازي في الطب في عيون الأنباء نقلاً عن القاضي التنوخي حيث يقول : قال ابن قارن الرازي ، وكان تلميذاً لأبي بكر الرازي الطبيب في الطب» . وقال ابن النديم البغدادي : «الكاتب علي بن ربل باللام وقال عنه إنه كان يكتب للمازيار بن قارن ، فلمَّا أسلم على يد المعتصم قرَّبه وظهر فصله بالحضرة ، وأدخله المتوكل في جملة ندمائه ، وكان بموضع من الأدب وهو معلم الرازي صناعة الطب ، وكان مولدُه ومنشؤه بطبرستان» . ولعلَّ المقصود هنا التاجر ابن قارن أو أحد أقربائه .

(34) الداعي : هو الحسن بن القاسم الحسني الداعي (توفي سنة 928م) ، آخر رجال الدولة العلوية في طبرستان . ولاه الناصر العلوي قيادة جيشه ، وزوَّجه ابنته . ولما قُتل الناصر (سنة 304 هـ) قام الداعي بالأمر بعده ، فاستولى على الريِّ وقزوين وزنجان وأبهر وقُم ، واستتبَّ له الأمر . وكان عادلاً مِقداماً ، أكثرُ جيشِه من مسلمي الدَّيلم . وظهر في أيامه خارجٌ من الديلم اسمُه «أسفار ابن شيرويه» فامتلك طبرستان ، وحاربه الداعي بالقرب من سارية بطبرستان فانحاز فريق ممن كان معه مع الديلم إلى أسفار ، وضعف أمر الداعي فقُتل .

وسرنا مجدّين حتى قدمنا نيسابور[35] وقد قُتل ليلى بن نعمان[36] ، فأصبنا[37] بها حمويه كوسا صاحب جيش خراسان[38] .

ثم رحلنا إلى سَرْخِس[39] ثم منها إلى مرو[40] ثم منها إلى قشمهان[41] وهي طرف مفازة آمل[42] فأقمنا بها ثلاثة أيام نريح الجمال لدخول المفازة .

ثم قطعنا المفازة إلى آمل ، ثم عبرنا جيحون[43] وصرنا إلى آفرير[44] رباط طاهر بن علي[45] .

---

(35) نيسابور هي عاصمة خراسان .

(36) ليلى بن نعمان : قُتل ليلى بن نعمان الدّيلمي سنة 309 هـ . وهو أحد أبناء الأطروش العلوي وكانت إليه ولاية جرجان ، استعمله عليها الحسن ابن القاسم الداعي سنة 308 هـ .

(37) أصبنا : أي التقينا .

(38) حمويه كوسا صاحب جيش خراسان : حمويه بن علي حكم سمرقند سنة 301 هـ . وكان صاحب جيش نصر بن أحمد بن إسماعيل .

(39) سَرْخِس : على ضفة نهر المشهد (تجند) أحد روافد نهر هراة ، وصفها المقدسي وأشار إلى تربتها الصحيحة وهوائها الطيب ، وكثرة مراعي الجمال ، والأغنام فيها .

(40) مرو : ظلّت مرو عاصمة لخراسان وبلاد ما وراء النهر طوال العصر الأموي ، وهي أول موقع سكنه العرب ، أسكنهم إيّاه أمير بن أحمر اليشكري ، من بني بكر بن وائل في عام 45هـ .

(41) قشمهان : لعلهما كشميهن من بلاد خراسان .

(42) مفازة آمل : يشتمل ربع «مرو» أيضاً على المواضع القائمة على طريق خراسان الكبير مما يلي «مرو» إلى الشمال الشرقي من نهر جيحون عند «آمل» ، حيث معبر الطريق إلى بخارى .

(43) جيحون : نهر مشهور يقع في أزبكستان في آسيا الوسطى ، هو نهر أموداريا .

(44) آفرير : لعلّها على مقربة من نهر جيحون . أنظر الجدل بشأن هذه الكلمة لدى الدهان ص 76 .

(45) لم أهتد إليه .

ثم رحلنا إلى بيكند[46] ثم دخلنا بخارى[47] وصرنا[48] إلى الجيهاني[49] وهو كاتب أمير خراسان ، وهو يُدعى بخراسان الشيخ العميد ، فتقدم بأخذ دار لنا ، وأقام لنا رجلاً يقضي حوائجنا ويزيح عللنا[50] في كل ما نريد فأقمنا أياماً .

ثم استأذن لنا على نصر بن أحمد[51] فدخلنا إليه ، وهو غلام أمرد ، فسلّمنا عليه بالإمرة وأمرنا بالجلوس ، فكان أول ما بدأنا به أن قال : كيف خلّفتم مولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وسلامته في نفسه وفتيانه وأوليائه؟ فقلنا : بخير . قال : زاده الله خيراً .

ثم قُرِئَ الكتابُ عليه بتسلم أرثخشمثين[52] من الفَضْل بن موسى النَصْراني[53] وكيل ابن الفُرات[54] وتسليمُها إلى أحْمد بن موسى الخوارزمي[55] وإنفاذنا والكتاب

---

(46) بيكند : بلدة بين بخارى وجيحون .

(47) بخارا أو بخارى بلدة كانت لها شهرتُها ، تقع إلى الغرب من سمرقند من أزبكستان الحالية .

(48) صرنا أي وصلنا إلى الجيهاني .

(49) الجيهاني : هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني ، وزير صاحب خراسان ، له كتاب ضائع اليوم بعنوان «المسالك والممالك» .

(50) أزاح العلّة : تقال في الجنود المحتاجين للمساعدة فتُقضى لهم .

(51) نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني ، الملقَّب بالسعيد (293-331 هـ/905-943 م) ، صاحب خراسان وما وراء النهر (حكم : 301-331 هـ/914-943 م) ، ولِيَ الإمارة وكان صغيراً فكفله أصحاب أبيه ، فلمّا كبر امتدَّ سلطانُه واتَّسعت دائرة ملكه فكان له خراسان وجرجان والريُّ ونيسابور ، مات بالسل .

(52) أرثخشمثين : ورد ذكرُها سابقاً .

(53) الفضل بن موسى النصراني : وكيل ابن الفرات .

(54) ابن الفرات ورد ذكرُه سابقاً .

(55) أحْمد بن موسى الخوارزمي : لم أقع له على ترجمة .

إلى صاحبه بخوارزم بترك العَرَض[56] لنا والكتاب بباب الترك ببذرقتنا[57] وترك العَرَض لنا .

فقال : وأين أحمد بن موسى؟ فقلنا : خلَّفناه بمدينة السلام ليخرج خلفنا لخمسة أيام . فقال : سمعاً وطاعة لما أمَرَ به مولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه .

قال : واتصل الخبر بالفضل بن موسى النصراني وكيل ابن الفرات فأعمل الحيلة في أمر أحمد بن موسى ، وكتب إلى عُمَّال المعاون[58] بطريق خراسان من جند سرخس إلى بيكند : أن أذكوا العيون[59] على أحمد بن موسى الخوارزمي في الخانات[60] والمراصد[61] وهو رجل من صفته ونعته فمن ظفر به فليعتقله إلى أن يرد عليه كتابنا بالمسألة ، فأخذ بمرو واعتقل .

وأقمنا نحن ببخارى ثمانية وعشرين يوماً ، وقد كان الفضل بن موسى أيضاً واطأ عبد الله بن باشتو وغيره من أصحابنا يقولون : إن أقمنا هجم الشتاء وفاتنا الدخول وأحمد بن موسى إذا وافانا لحق بنا .

قال[62] :

ورأيت الدراهم ببخارى ألواناً شتَّى منها دراهم يقال لها الغطريفية[63] : وهي نحاس وشَبَه[64] وصفر يؤخذ منها عدد بلا وزن ، مئة منها بدرهم فضَّة ، وإذا

---

(56) العَرَض : كل شيء من المتاع ما عدا الدراهم والدنانير .

(57) البذرقة هي الحراسة أو الحماية ، وهم رجال الحراسة والحماية الذين يصاحبون القوافل أو الشخصيات المهمّة أثناء تنقُّلاتهم في البلدان والمدن .

(58) المعاون هو رئيس الشرطة ، وعُمَّال المعاون هم أعوانُه الذين تحت إمرته .

(59) أذكى العيون : أي بعث بالجواسيس ،والعين هو الجاسوس والمخبر .

(60) الخان : هو نوع من فندق لإقامة التجار وحفظ بضائعهم .

(61) المرصد : مركز جنود الكمارك وحراس الحدود .

(62) أي ابن فضلان .

(63) الدراهم الغطريفية أو الغطارفة هي دراهم كانت رائجة ببخارى ، ضربها غطريف بن عطاء عامل خراسان في عهد الخليفة العباسي الرشيد .

(64) الشَبَه هو النحاس الأصفر ، والصُفْر مثلها .

شروطهم في مهور نسائهم : تزوج فلان ابن فلان فلانة بنت فلان على كذا وكذا ألف درهم غطريفية ، وكذلك أيضاً شراء عقارهم وشراء عبيدهم لا يذكرون غيرها من الدراهم ، ولهم دراهم أخر صفر وحده أربعون منها بدانق ، ولهم أيضاً دراهم صفر يقال لها السمرقندية[65] ستة منها بدانق .

فلمّا سمعت كلام عبد الله بن باشتو وكلام غيره يحذرونني من هجوم الشتاء رحلنا من بخارى راجعين إلى النهر ، فتكارَينا سفينةً إلى خوارزم ، والمسافةُ إليها من الموضع الذي اكترَينا منه السفينةَ أكثرُ من مئتي فرسخ[66] فكنّا نسير بعض النهار ولا يستوي لنا سيرُه كلُّه من البرد وشدّته ، إلى أن قدمنا خوارزم فدخلنا على أميرها محمد ابن عراق خوارزم شاه[67] فأكرمنا وقربنا وأنزلنا داراً ، فلما كان بعد ثلاثة أيام أحضرنا وناظرنا[68] في الدخول إلى بلد التُّرك وقال : لا آذن لكم في ذلك ولا يحلُّ إلي تركُكم تغررون[69] بدمائكم وأنا أعلم أنها حيلة أوقعها هذا الغلام ، يعني تكين[70] لأنه كان عندنا حَدّاداً وقد وَقَف على[71] بيع الحديد ببلد الكفار[72] ، وهو الذي غرّ[73] نذيراً وحمله على كلام أمير المؤمنين[74] وإيصال كتاب ملك الصقالبة

---

(65) الدراهم السمرقندية : يشرحها ابن فضلان للتوّ قائلاً إنها دراهم صُفر ستة منها بدانق .

(66) الفرسخ : يبلغ الفرسخُ حسب معايير العرب الأقدمين إثني عشر ألف ذراع ، والذراع أربع وعشرون إصبعاً ، والإصبع ستُّ حبّات شعير مصفوفةٌ بطونُ بعضِها لبعضٍ ، والميلُ ثُلْثُ الفرسخ . والفرسخُ بالنسبة لعلوم الفقه بمصطلحات اليوم يبلغ ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف ذراع بذراع اليد ، وهي من المرفق إلى طرف الأصابع ، فتكون المسافة أربعةً و أربعين كيلو متراً تقريباً .

(67) محمد ابن عراق خوارزم شاه : هو أمير خوارزم .

(68) ناظرنا أي جادلنا بجدوى وأهمية ومخاطر الشيء الفلاني .

(69) غرَّر به تغريراً : عرَّضَه للتهلكة ، يقال غرَّر بنفسه وماله .

(70) تكين : أي تكين التركي الوارد ذكرُه أعلاه .

(71) وقف على الشيء : عاينه وفهمه . والمقصود تكرّس لبيع الحديد .

(72) أي بلاد الصقالبة : السلاف .

(73) غرَّ فلان فلاناً : خدعه وأطمعه بالباطل .

(74) أي هو الذي شجع نذير الحرمي على الاتصال بأمير المؤمنين لإيفاد البعثة . غيبة .

إليه والأمير الأجلّ ، يعني أمير خراسان ، كان أحقّ بإقامةِ الدعوةِ لأميرِ المؤمنين في ذلك البلد لو وَجَدَ مَحِيْصاً[75] ومن بعد فبينكم وبين هذا البلد الذي تذكرون ألف قبيلة من الكفار ، وهذا تمويه[76] على السلطان وقد نصحتكم .

ولا بد من الكتاب إلى الأمير الأجلّ حتى يراجعَ السلطان ، أيّده الله ، في المكاتبة وتقيمون أنتم إلى وقت يعود الجواب ، فانصرفنا عنه ذلك اليوم ثم عاودناه ولم نزل نرفق به ونقول : هذا أمر أمير المؤمنين وكتابه فما وجه المراجعة فيه حتى أذن لنا ، فانحدرنا من خوارزم إلى الجرجانية[77] وبينها وبين خوارزم في الماء خمسون فرسخاً .

ورأيت دراهم خوارزم مزيَّفة ورصاصاً وزيوفاً[78] وصُفراً ، ويسمون الدرهم طازجة[79] ووزنه أربعة دوانيق ونصف ، والصيرفي منهم يبيع الكعاب[80] والدوامات[81] والدراهم .

وهم أوحش الناس كلاماً وطبعاً, كلامُهم أشبهُ شيءٍ بصياح الزرازير ، وبها قرية

---

(75) المحيص : المهْرَب .

(76) تمويهٌ : أي غِشٌ ، لأنّ موَّهَ الشيء طلاه بفضة أو ذهب وليس جوهرُه منهما ، وموّه الحقّ لبسه بالباطل ، وموَّهَ الخبرَ أي أخبره بخلاف ما سأله عنه .

(77) الجرجانية : تعريب لكركانج أو كركاند ، وهي مدينة عظيمة وبردُها شديد ، وكان يسكنها من يعرفون اليوم بالتركمان . قال ياقوت : يقال لها بلغتهم كركانج ، وقد عرِّبت فقيل لها الجرجانية وهي على شاطئ جيحون . وفي الحديث عن خوارزم يرد بأنها على حافتي جيحون قصبتُها العظمى شرقيَّ النهر ، وهي كاث ولها قصبة أخرى غربية وهي الجرجانية .

(78) الزائف هو الدرهم الرديء والمردود لغش في مكوناته .

(79) الدراهم الطازجة هي النقيَّةُ الخالصةُ المعدن ، وهي تعريب تازة .

(80) الكعاب : جمع كعب وهو الدانق الصغير .

(81) والدوامات : عملة صغيرة مستديرة الشكل كما يبدو من ظاهر النص .

على يوم يقال لها أردكو[82] أهلها يقال لهم الكردلية[83] كلامهم أشبه شيءٍ بنقيق الضفادع وهم يتبرؤون من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[84] رضي الله عنه في دبر[85] كل صلاة .

فأقمنا بالجرجانية أياماً وجَمَدَ نهر جيحون من أوّله إلى آخرِه ، وكان سُمْكُ الجُمْدِ

---

(82) أردكو : لم أعثر على هذه القرية في المصادر المتوفرة تحت يدي .

(83) الكردلية : هذه المفردة تثير الالتباسات والتساؤلات خاصة عند ورودها في نص تاريخي متقدم زمنياً . هل يتعلق الأمر ، على وجه التخمين ، بالأكراد أو بهذا القسم منهم المُسمى بالفيلية . يذكر أكثر من باحث ودارس أن المجتمع الفيلي مجتمع تحكمه العشائرية ومن أكبر عشائره اليوم قبائل مثل (ملك شاهي) و (آل علي شيرواني وآل شيرواني) و(الكردلية) . .الخ . الكردلية إذن عشيرة كردية معروفة اليوم بين عشائر الفيلية ، كما أن بيت الكردلية هو بيت بناه أحد أعيان القاهرة وهو محمد بن الحاج سالم بن جلمام الجزار عام 1631م . كيف وقع هذا الاتفاق بين لفظة الكردلية في نص ابن فضلان وبينها كدلالة لقبيلة كردية معروفة في زمننا الحالي؟ .

(84) علي بن أبي طالب : ولد سنة 23 قبل الهجرة وتوفي سنة 40 هـ . وهو أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ، أمير المؤمنين ، رابع الخلفاء الراشدين وابن عمّ النبى وزوج ابنته فاطمة الزهراء ووالد الحسن والحسين . وهو من الخطباء والعلماء بالقضاء المعدودين وأوّلُ الناس إسلاماً من الغلمان ، عاش فى حِجْرِ النبيّ منذ طفولته ، وعندما هاجر الرسول نام في فراشه ، وبقي بعده أياماً فى مكة ليقضي ديونَه ويردَّ ودائعَه ثم هاجر إلى المدينة . شهد جميع الغزوات مع الرسول . فى 17 رمضان سنة 40 هـ اغتاله أحد الخوارج ـ واسمه عبد الرحمن بن ملجم ـ وهو في صلاة الصبح .

(85) أي في آخرة كل صلاة .

سبعة عشر شبراً[86] وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق، وهو ثابت لا يتخلخل، فأقام على ذلك ثلاثة أشهر.

فرأينا بلداً ما ظننا إلا أن باباً من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة[87] وإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه وأراد برّه[88] قال له: تعال إليَّ حتى نتحدث فإن عندي ناراً طيبة هذا إذا بالغ في بِرّه وصلته إلا أن الله تعالى قد لطف بهم في الحطب، أرخصه عليهم: حمل عجلة من حطب

(86) أول النقولات التي نلتقيها لدى القزويني عن ابن فضلان والتي نجدها في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد» هي: «وحُكِيَ أنَّ جيحون مع كثرةِ مائِه يَجْمُدُ في الشتاء، وكيفيَّةُ جمودِه أنه إذا اشتدَّ البردُ وقَوِيَ كلبه جمد أولاً قِطعاً ثم تسري تلك القطع على وجه الماء، وكلَّما ماستْ قطعةٌ من تلك القطاع أخرى التصقتْ بها، ولا تزال تنضمُّ حتى صار جيحون كلُّه سطحاً واحداً، ثم يثخن ويصير ثخنُه في أكثر الأوقات خمسة أشبار. قال ابن فضلان في رسالته: رأيت جيحون وقد جمد سبعة عشر شبراً. والله أعلم بصحَّتِه. ثم يبقى باقي الماء تحته جارياً فيحفر أهل خوارزم فيه آباراً بالمعاول حتى يخرقوه إلى الماء، ثم يسقون منها كما يُسقى من البئر لشربهم، ويحملونه في الجرار، وإذا استحكم جمود هذا النَّهر عبرتْ عليه القوافلُ والعجل الموقَّرة بالبقر، ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق، ويتظاهر عليه الغبارُ كما يكون في البوادي، ويبقى على ذلك نحو شهرين. فإذا انكسرتْ سورةُ البرد عاد يقطع قطعاً كما بدا في أول أمره إلى أن يعود إلى حاله الأولى». وعبارة القزويني «قال ابن فضلان في رسالته: رأيت جيحون وقد جمد سبعة عشر شبراً. والله أعلم بصحته» تبدو متشكِّكة بصحَّة معلومات ابن فضلان عن جيحون.

(87) يعلِّق ياقوت الحموي على هذا الكلام بالقول: «قلت: وهذا أيضاً كذبٌ، فإنه لولا ركودُ الهواء في الشتاء في بلادهم لما عاش فيها أحدٌ».

(88) أرد بره: أراد صلتَه.

الطاغ[89] بدرهمين من دراهمهم تكون زهاء ثلاثة آلاف رطل[90] .

ورسم سؤالهم أن لا يقف السائل على الباب ، بل يدخل إلى دار الواحد منهم فيقعد ساعةً عند ناره يصطلي ، ثم يقول : بكند ، يعني الخبز ، فإن أعطوه شيئاً أخذ وإلا خرج .

وتطاول مقامُنا بالجرجانيَّة وذلك أنَّا أقمنا بها أياماً من رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال ، وكان طول مقامنا من جهة البرد وشدَّته ، ولقد بلغني أن رجلين ساقا اثني عشر جملاً ليحملا عليها حطباً من بعض الغياض[91] فنسيا أن يأخذا معهما قدَّاحة[92] وحرَّاقة[93] وأنهما باتا بغير نار فأصبحا والجمال موتى لشدة البرد .

ولقد رأيتُ لهواءِ بردِها بأن السوقَ بها والشوارع لتخلو حتى يطوف الإنسانُ أكثرَ الشَّوارعِ والأسواقِ فلا يجد أحداً ولا يستقبله إنسانٌ ، ولقد كنت أخرج من الحمَّام فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت

---

(89) حسب ياقوت فإن الطاغ هو الغضا ، وهي تركيَّة معرَّبة . ويضيف ياقوت : «قلتُ : وهذا أيضا كذب ، لأن العجلة أكثر ما تجر عليها ما اختبرته وحملت لي عليه ألف رطل» .

(90) الرِّطْلُ : الرطل العراقي مئة وثلاثون درهماً ، واحد وتسعون مثقالاً ، وحسب الخوارزمي فإنَّ كلَّ رَطْلٍ مائةٌ وثمانية وعشرون درهماً . والرطل لدى الأطباء العرب هو 12 أوقية . الرطل : ما يساوي 314 غراماً تقريباً . الرطل 2564 غراماً والأوقية 12 /1 من الرطل فعلى هذا تكون الأُوْقِيَةُ 213 غراماً .

(91) الغيضة هي الأجمة والموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتفُّ .

(92) القدَّاحة : الحجر الذي تقدح به . والعراقيون يستخدمونها اليوم بنفس المعنى لولاعة السجائر .

(93) الحرَّاقة : الفتيل .

أدنيها إلى النار[94] .

(94) هنا ما ينقله ياقوت الحموي في (معجم البلدان) وتركناه من دون مقارنة بالمتن بسبب طوله :

«وقرأتُ في الرسالة التي كتبها أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر بالله ملك الصقالبة ذكر فيها ما شاهده له منذ خرج من بغداد إلى أن عاد إليها ، فقال بعد وصوله إلى بخارى قال : وانفصلنا من بخارى إلى خوارزم وانحدرنا من خوارزم إلى الجرجانية ، وبينها وبين خوارزم في الماءِ خمسون فرسخاً ، قلتُ هكذا قال ، ولا أدري أيَّ شيءٍ عنى بخوارزم لأن خوارزم هو اسم الإقليم بلا شك ، ورأيتُ دراهمَ بخوارزمَ مزيَّفةً ورصاصاً وزيوفاً وصُفراً. ويسمُّون الدرهم طازجه ووزنه أربعة دوانق ونصف ، والصَّيْرَفِيُّ منهم يبيع الكعاب والدوامات والدراهم ، وهم أوحشُ النَّاسِ كلاماً وطبعاً ، وكلامهم أشبهَ شيءٍ بنقيقِ الضفادع ، وهم يتبرؤون من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في دبرِ كل صلاة ، فأقمنا بالجرجانيَّة أياماً وجمد جيحون من أوَّلِه إلى آخره وكان سمك الجمد تسعة عشر شبراً . قال عبدالله الفقير : وهذا كذب منه فإنَّ أكثر ما يجمد خمسة أشبار وهنا يكون نادراً ، فأما العادةُ فهو شبران أو ثلاثة شاهدتُه وسألتُ عنه أهل تلك البلاد ، ولعلَّه ظنَّ أنَّ النَّهر يجمد كلُّه وليس الأمرُ كذلك إنَّما يجمد أعلاه وأسفلُه جارٍ ، ويحفر أهلُ خوارزمَ في الجليد ويستخرجون منه الماء لشربهم لا يتعدى الثلاثة أشبار إلا نادراً . قال : وكانت الخيلُ والبغالُ والحميرُ والعجلُ تجتاز عليه كما تجتاز على الطريق وهو ثابت لا يتحلحل ، فأقام على ذلك ثلاثة أشهر فرأينا بلداً ما ظننا إلا أن باباً من الزمهرير فتح علينا منه ولا يسقط في الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة . قلت : وهذا أيضاً كذب فإنه لولا ركودُ الهواءِ في الشتاء في بلادهم لما عاش فيها أحد . قال : وإذا أتحف الرَّجلُ من أهلِه صاحبَه وأراد بره قال : تعالَ إليَّ حتَّى نتحدَّث فإن عندي ناراً طيبة . هذا إذا بلغ في بره وصلته إلاَّ أن الله عز وجل قد لطف بهم في الحطب وأرخصه عليهم : حمل عجلة من حطب الطاغ وهو الغضا بدرهمين يكون وزنُها ثلاثة آلاف رطل . قلتُ : وهذا أيضاً كذب لأن العجلة أكثر ما تجرُّ على ما اختبرتُه وحملتُ قماشاً لي عليه ألف رطل لأنَّ عجلتهم جميعها لا تجرُّها إلاَّ رأسٌ واحدٌ أمَّا بقر أو حمار أو فرس ، وأمَّا رخص الحطب فيحتمل أن كان في زمانه بتلك الرخص ، فأما وقت كوني بها فإن مائة من كان بثلث دينار ركني . قال ورسم سؤالهم أن لا يقف السائل على الباب ، بل يدخل إلى دار الواحد منهم فيقعد ساعة عند ناره يصطلي ثم يقول بَكَنْد- وهو الخبز- فإن أعطوه شيئاً وإلا خرج . قلت : أنا وهذا من رسمهم صحيح إلا أنه في ==

الرستاق دون المدينة شاهدت ذلك ، ثم وصف شدّة بردِهم الذي أنا شاهدته من بردِها أن طُرُقَها تجمد في الوحول ثم يمشي عليها فيطير الغبار منها ، فإن تغيمت الدنيا ودفئت قليلاً عادت وحولاً تغوص فيها الدوابُّ إلى ركبها ، وقد كنت اجتهدتُ أن أكتب شيئاً بها فما كان يمكنني لجمود الدواة حتى أقربها من النار وأذيبها ، وكنتُ إذا وضعتُ الشَّربة على شفتي التصقتْ بها لجمودها على شفتي ولم يقاوم حرارة النفس الجماد . . . . .

وقرأتُ في رسالة أحمد بن فَضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر إلى ملك الصقالبة حكى فيها ما عاينه منذ انفصل عن بغداد إلى أن عاد إليها ، فحكيتُ ما ذكره على وجهه استعجاباً به . قال : ورأيتُ الروسيَّة وقد وافوا بتجاراتهم فنزلوا على نهر إتل ، فلم أر أتمّ أبداناً منهم كأنهم النخل شُقر حمر لا يلبسون القراطف ولا الخفاتين ولكن يلبس الرجل منهم كساءً يشتمل به على أحد شقيه ويخرج إحدى يديه منه ، ومع كلٍّ واحد منهم سيفٌ وسكينٌ وفاسٌ لا يفارقه ، وسيوفهُم صفائحُ مشطِبة أفرنجية ، ومن حدِّ ظُفر الواحد منهم إلى عنقه مخضر شجر وصور وغير ذلك ، وكلُّ امرأةٍ منهم على ثديها حقة مشدودة : إما من حديد وإما من نحاس وإما من فضة وإما من ذهب ، على قدر مال زوجها ومقداره في كل حقة حلقةٌ فيها سكينٌ مشدودةٌ على الثديِّ أيضاً ، وفي أعناقهن أطواقُ ذهبٍ وفضّةٍ لأنَّ الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهمٍ صاغ لامرأته طوقاً، وإن ملك عشرين ألفاً صاغ لها طوقين ، وكلّما زاد عشرة آلاف درهم يزيد لها طوقاً آخر ، فربما كان في عنق الواحدة منهن أطواق كثيرة . وأجلُّ الحليِّ عندهم الخرزُ الأخضرُ من الخزف الذي يكون على السفن ، يبالغون فيه و يشترون الخرزة منه بدرهم وينظمونه عقداً لنسائهم ، وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا يغتسلون من جَنابة ، كأنهم الحمير الضالَّة يجيئون من بلدهم فيُرسونُ سُفُنهم بإتل ، وهو نهر كبير ، ويبنون على شاطئه بيوتاً كباراً من الخشب ، ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر ، ولكلٍّ واحدٍ منهم سريرٌ يجلس عليه ومعه جواريه الرُوقة للتجار فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه ، وربما اجتمعتْ الجماعة منهم على هذه الحالة بعضهم بحذاءِ بعض ، وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية فيصادفه ينكحها فلا يزولعنها حتى يقضي إرَبه ، ولا بد لهم في كلِّ يوم بالغداة أن تأتي الجارية ومعها قِصْعَةٌ كبيرةٌ فيها ماء فتقدِّمها إلى مولاها فيغسل فيها وجهه ويديه وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة ، ثم يمتخط ويبصق فيها ولا يدع شيئاً من القذر إلا فعله في ذلك الماء ، فإذا فرغ مّما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي يليه

فيفعل مثل ما فعل صاحبه ، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتَّى تديرها على جميع من في البيت ، وكل واحد منهم يتخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها ، وساعة موافاة سفُنهم إلى هذا المرسى يخرج كل واحد منهم ، ومعه خبزٌ ولحم ولبن وبصل ونبيذ ، حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه وجه الإنسان ، وحولها صور صغار ، وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت في الأرض ، فيوافي إلى الصورة الكبيرة ، ويسجد لها ثم يقول : يا رب قد جئت من بعد ومعي من الجواري كذا وكذا رأساً ، ومن السمُّور كذا وكذا جلداً ، حتَّى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته ، ثم يقول : وقد جئتك بهذه الهدية . ثم يترك ما معه بين يدي الخشبة ويقول : أريد أن ترزقني تاجراً معه دنانير ودراهم فيشتري مني كلَّما أريد ولا يخالفني في جميع ما أقول . ثم ينصرف فإنْ تعسَّر عليه بيعُه وطالتْ أيامُه عاد بهدية أخرى ثانية وثالثة ، فإنْ تعذَّر عليه ما يريد حمل إلى صورة من تلك الصور الصغار هدية وسألها الشفاعة ، وقال : هؤلاءِ نساءُ ربنا وبناته . ولا يزال إلى صورة صورة يسألها ويستشفع بها ويتضرَّع بين يديها فربَّما تسهل له البيع فباع فيقول : قد قضى ربي حاجتي وأحتاج أن أكافئه . ثمَّ يعمد إلى عدة من البقر والغنم على ذلك ويقتلها ويتصدَّق ببعض اللحم ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها ، ويعلِّق رؤوس البقر والغنم على ذلك الخشب المنصوب في الأرض إذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت ذلك فيقول الذي فعله : قد رضي عنِّي ربي وأكل هديتي ، وإذا مرض منهم واحد ضربوا له خيمةً ناحية عنهم وطرحوه فيها ، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء ، ولا يقربونه ولا يكلمونه بل لا يتعاهدونه في كل أيامه لا سيما إن كان ضعيفاً أو كان مملوكاً ، فإنْ برأ وقام رجع إليهم ، وإنْ مات أحرقوه ، وإن كان مملوكاً تركوه على حالة تأكله الكلاب وجوارح الطير ، وإذا أصابوا سارقاً أو لصاً جاؤوا به إلى شجرة طويلة غليظة وشدوا في عنقه حبلاً وثيقاً وعلقوه فيها ، ويبقى معلقاً حتى يتقطع من المكث إما بالرياح أو الأمطار ، وكان يقال لي إنهم كانوا يفعلون برؤسائهم عند الموت أموراً أقلها الحرق ، فكنت أحب أن أقف على ذاك حتى بلغني موت رجل منهم جليل فجعلوه في قبره وسقفوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها ، وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها ، والغني يجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة أثلاث ، فثلث لأهله وثلث يقطعون له ثياباً وثلث يشترون به نبيذاً يشربونه يوم تَقتُل جاريته نفسها وتُحرق مع مولاها ، وهم مستهترون بالخمر يشربونها ليلاً ونهاراً ، وربَّما مات الواحد منهم والقدح في يده ، وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه : من

منكم يموت معه؟ . فيقول بعضهم : أنا . فإذا قال ذلك فقد وجب عليه لا يستوي له أن يرجع أبداً ، ولو أراد ذلك ما تُرِك وأكثر ما ترك وأكثر ما يفعل هذا الجواري ، فلمّا مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره قالوا لجواريه : من يموت معه؟ . فقالت إحداهن : أنا . فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيثما سلكت حتى إنهما ربما غسلتا رجليها بأيديهما ، وأخذوا في شأنه وقطع الثياب له وإصلاح ما يحتاج له ، والجارية في كل يوم تشرب وتغنّي فارحة مستبشرة ، فلمّا كان اليوم الذي يُحرق فيه هو والجارية حضرت إلى النهر الذي فيه سفينته ، فإذا هي قد أخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخلنج وغيره ، وجعل حولها أيضاً مثل الأناس الكبار من الخشب ، ثم مُدَّتْ حتى جُعلت على ذلك الخشب ، وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهمه وهو بعد في قبره لم يُخرجوه ، ثم جاؤوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات الديباج الرومي والمساند الديباج الرومي ، ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت ففرشت على السرير الذي ذكرناه ، وهي وليت خياطته وإصلاحه ، وهي تقتل الجواري ورأيتها حواء نيِّرة ضخمة مُكفَهرَّة ، فلمّا وافوا قبره نحوا التراب عن الخشب ونحوا الخشب واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه ، فرأيته قد اسودَّ لبرد البلد ، وقد كانوا جعلوا معه في قبره نبيذاً وفاكهة وطنبوراً ، فأخرجوا جميع ذلك وإذا هو لم يتغير منه شيء غير لونه ، فألبسوه سراويل وراناً وخفاً وقرطقاً وخفتان ديباج له أزرار ذهب ، وجعلوا على رأسه قلنسوةً من ديباج سمُّور ، وحملوه حتى أدخلوه القبَّة التي على السفينة ، وأجلسوه على المضربة وأسندوه بالمساند ، وجاؤوا بالنبيذ والفواكه والريحان فجعلوه معه ، وجاؤوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه ، وجاؤوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة ، ثم جاؤوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه ، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا ، ثم قطعوهما بالسيوف وألقوا لحمهما في السفينة ، ثم جاؤوا ببقرتين فقطَّعوهما أيضاً وألقوهما في السفينة ، ثم أحضروا ديكاً ودجاجةً فقتلوهما وطرحوهما فيها ، والجارية التي تقتل ذاهبة وجائية ، تدخل قبَّةً قبَّةً من قبابهم فيجمعها واحد واحد وكل واحد يقول لها : قولي لمولاكِ إنما فعلت هذا من محبتك . فلمّا كان وقت العصر من يوم الجمعة جاؤوا بالجارية إلى شيء عملوه مثل ملبن الباب فوضعت رجلها على أكف الرجال وأشرفت على ذلك الملبن وتكلمت بكلام لها ، فأنزلوها ثم أصعدوها ثانية ففعلت كفعلها في المرة الأولى ، ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة ففعلت فعلها في المرتين ، ثم دفعوا لها دجاجة فقطعت رأسها ورمت به ، فأخذوا الدجاجة وألقوها في السفينة ، فسألتُ التَّرجمان عن فعلها فقال : قالت في المرة الأولى : هُو ذا أرى أبي وأمي . وقالت

في المرة الثانية : هو ذا أرى جميع قرابتي الموتى قعوداً . وقالت في المرة الثالثة : هو ذا أرى مولاي قاعداً في الجنة ، والجنة حسنة خضراء ومعه الرجال والغلمان ، وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه . فمرُّوا بها نحو السفينة فنزعت سوارَين كانا معها فدفعتهما إلى المرأة العجوز التي تسمى ملك الموت وهي التي تقتلها ، ونزعت خلخالين كانا عليها ودفتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها وهما ابنتا المعروفة بملك الموت ، ثم أصعدوها إلى السفينة ولم يدخلوها إلى القبَّة . وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ، ودفعوا إليها قدحاً من نبيذ فغنت عليه وشربته ، فقال لي التَّرجمان : إنها تودِّع صواحباتها بذلك ، ثم دُفع إليها قدح آخر فأخذته وطوّلت الغناء والعجوز تستحثها على شربه والدخول إلى القبّة التي فيها مولاها ، فرأيتها وقد تبدّلت ، وأرادت الدخول إلى القبّة فأدخلت رأسها بين القبّة والسفينة ، فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القبة ، ودخلت معها العجوز وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها فيجزع غيرُها من الجواري فلا يطلبن الموت مع مواليهنَّ ، ثم دخل القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية ، ثم أضجعوها إلى جنب مولاها الميت ، وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها ، وجعلت العجوز التي تسمى ملك الموت في عنقها حبلاً مخالفاً ودفعته إلى اثنين ليجذباه ، وأقبلت ومعها خنجر عظيم عريض النُّصل فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعاً موضعاً وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت ، ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبة فأشعلها بالنار ، ثم مشى القهقرى نحو قفاه إلى السفينة والخشبة في يده الواحدة ويده الأخرى على إسته وهو عريان حتى أحرق ذلك الخشب الذي قد عبوه تحت السفينة من بعد ما وضعوا الجارية التي قتلوها في جنب مولاها ، ثم وافى الناس بالخشب والحطب ومع كل واحد خشبة وقد ألهب رأسها ، فيلقيها في ذلك الخشب فتأخذ النار في الحطب ثم في السفينة ثم في القبة والرجل والجارية وجميع ما فيها ، ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتدَّ لهب النار واضطرم تسعُّرها ، وكان إلى جانبي رجل من الروسية فسمعته يكلم الترجمان الذي معه فسألته عما قال له ، فقال : إنه يقول أنتم معاشر العرب حَمقى لأنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم وأكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب فتأكله الهوام والدود ، ونحن نحرقه بالنار في لحظ فيدخل الجنة من وقته وساعته ، ثم ضحك ضحكاً مفرطا . وقال من محبة ربه له قد بعث الريح حتى تأخذه في ساعته ، فما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والرجل الميت والجارية رمادا رمِدداً . ثم بنوا على موضع السفينة وكانوا أخرجوها من النهر شبيهاً بالتل المدور ، ونصبوا في وسطه خشبة كبيرة خذنج ، وكتبوا عليها إسم ==

ولقد كنتُ أنام في بيتٍ جوف بيت[95] وفيه قُبة لُبود[96] تركية وأنا مدثر بالأكسية والفُرى[97] فربما التصق خدي على المخدة . ولقد رأيت الجباب[98] بها تكسي البوستينات[99] من جلود الغنم لئلا تتشقّق وتنكسر فلا يغني ذلك شيئاً .

ولقد رأيت الأرض تنشقّق فيها أوديةٌ عظام لشدة البرد ، وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق بنصفين لذلك . فلما انتصف شوال من سنة تسع وثلاثمئة أخذ الزمان في التغير ، وانحل نهر جيحون ، وأخذنا نحن فيما نحتاج إليه من آلة السفر واشترينا الجمال التركية[100] واستعملنا السُفَر[101] من جلود الجمال لعبور الأنهار التي نحتاج

== الرجل واسم ملك الروس وانصرفوا . قال : ومن رسم ملوك الروس أن يكون معه في قصره أربعمائة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده ، فهم يموتون بموته ويقتلون دونه ، ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل ويشرب وجارية أخرى يطؤها ، وهؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سريره وسريره عظيم مرصّع بنفيس الجواهر ، ويجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشه وربما وطيءَ الواحدة منهن بحضرة أصحابه الذين ذكرنا ولا ينزل عن سريره ، فإذا أراد قضاء حاجة قضاها في طشت ، وإذا أراد الركوب قدّموا دابته إلى السرير فركبها منه ، وإذا أراد النزول قدّم دابته حتى يكون نزوله عليه ، وله خليفة يسوس الجيوش ويواقع الأعداء ويخلفه في رعيته . هذا ما نقلتُه من رسالة ابن فَضلان حرفاً حرفاً ، وعليه عهدة ما حكاه والله أعلم بصحته ، وأما الآن فالمشهور من دينهم دين النصرانية» . انتهى .

(95) بيتٍ جوف بيتٍ : حسب د . الدهان فإن جوف البيت هو داخله . لكنني أحسب أن ابن فضلان يريد القول بأنه كان ينام في حجرة داخل البيت . أو في مكان منزوٍ في الحجرة نفسها .

(96) اللبود جمع لَبد وهي شعر أو صوف مضغوط على بعضه ليتلبد . واللبد هو كل شعر أو صوف متلبد ، وهو كذلك ما يوضع تحت السرج ، وضرب من البُسُط .

(97) الفُرى جمع فروة وهو كساء من الفرو أو جلود الحيوانات كالإبل والغنم وغيرهما .

(98) الجباب : جمع جُبّة ، والجبة ثوب سابغ ، واسع الكُمّين مشقوقُ المقدم يُلبس فوق الثياب .

(99) البوستينات : جمع بوست أو بوستين ، وهو العباءة أو المعطف المصنوع من الجلد .

(100) الجمال التركية : هي الجمال من ذوات السنامين .

(101) السُفَر : جمع سفرة وهي المركب أو القارب المصنوع من الجلد والمستعمل لعبور الأنهار أو الركوب والنقل وغيرها .

أن نعبرها في بلد الترك وتزودنا الخبز والجاورس[102] والنمكسوذ[103] لثلاثة أشهر .

وأمرنا من كنا نأنس به من أهل البلد بالاستظهار[104] في الثياب والاستكثار منها ، وهوّلوا علينا الأمر وعظّموا القصّة ، فلما شاهدنا ذلك كان أضعاف ما وصف لنا ، فكان كل رجل منا عليه قرطق[105] وفوقه خفتان[106] وفوقه بوستين[107] وفوقه لبادة[108] وبرنس[109] لا تبدو منه إلا عيناه وسراويل طاق[110] وآخر مبطّن وران[111] وخُف[112] كيمخت[113] وفوق الخُفّ خُفٌّ آخرَ فكان الواحد منا إذا ركب الجمل لم يقدر أن يتحرك لما عليه من الثياب ، وتأخر عنا الفقيه والمعلم والغلمان الذين خرجوا

---

(102) الجاورس : معربة ، وهي حبوب الدخن .

(100) النمكسوذ أو النمكسود بالدال المعجمة هو اللحم إذا شُرِّح وجُعل عليه الملح والبهار .

(104) الاستظهار : أي الاحتياط ، من الحيطة .

(105) قرطق : معرب من (كرته) وهو قميص أو معطف قصير يصل إلى منتصف الجسم . دهان .

(106) خفتان : قفطان وهو صدرية تحت الثياب .

(107) بوستين مفرد بوستينات : ورد شرحها أعلاه .

(108) لبادة : ورد شرحها أعلاه .

(109) برنس : كل ثوب رأسه منه ، ملتزق به ، وهو القلنسوة الطويلة كذلك .

(110) سراويل طاق : الطاق ضرب من الثياب بغير جيب ، يلبسه المولود غالباً . هذا ما يقوله دهان في تحقيقه لرحلة ابن فضلان . وفي ظننا أن هناك التباسا وعدمَ وضوح في هذا التعريف . فإنه يرد في كتب التراث الحديث عن (قميص واحد) أو (قباء طاق) ، وعن (قباء محشوّ) وليس عليه أزرار ؟ «فقال : . . طاق طاق ، أي لبسوا قباء مفرداً ليس معه شيء آخر من الثياب ، كما ورد في الحديث : «الإقامة طاق طاق » أو أنه لم يكن له بطانة ولا قطن ، وقال في القاموس : الطاق : ضرب من الثياب . وإذن فإن (سراويل طاق) هي سراويل مصنوعة في الغالب من طبقة واحدة من القماش غير محشوّة بالبطانة أو بالقطن .

(111) ران : نوع من الأحذية ، جمعه رانات حسب دهان . ولعلّه جورب بدون قدم . غيبة .

(112) الخُفُّ هو كل ما يُلبس في الرجل من جلد رقيق ، جمع خِفاف وأخفاف .

(113) كيمخت : كلمة فارسية تعني نوعاً من الجلد لعلّه من جلد الخيل . دهان .

معنا من مدينة السلام فَزَعَاً من الدخول إلى ذلك البلد ، وسرت أنا والرسول وسلفٌ له والغلامان تكين وبارس[114] .

فلما كان في اليوم الذي عزمنا فيه على المسير قلت لهم : يا قوم معكم غلام الملك وقد وقف على أمركم كله ومعكم كتب السلطان ، ولا أشكُّ أن فيها ذكر توجيه أربعة آلاف دينار المسيبية[115] له وتصيرون إلى ملك أعجمي[116] فيطالبكم بذلك ، فقالوا : لا تخش من هذا فإنه غير مطالب لنا ، فحذَّرتهم وقلت : أنا أعلم أنه يطالبكم فلم يقبلوا[117] .

واستدفّ[118] أمر القافلة ، واكترينا دليلاً يقال له قلواس من أهل الجرجانية ، ثم توكلنا على الله عز وجل وفوّضنا أمرنا إليه ، ورحلنا من الجرجانية يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمئة[119] ، فنزلنا رباطاً[120] يقال له زمجان وهو

---

(114) يلاحظ د . غيبة أن ابن فضلان يذكر في معرض حديثه عن أتراك الغزية ، الوارد لاحقاً ، أن فريقه كان يتألف من نحو خمسة آلاف شخص ، وكان تحت إمرته نحو ثلاثة آلاف دابة ، ولكنه لا يتحدث عن هذا الفريق بصورة مباشرة ولا بمن يتألف وما هو قوامه .

(115) دينار المسيبية : في حديث ياقوت عن بخارى : «وكانت سكّتها التصاوير ، وهي من ضرب الإسلام ، وكانت لهم دراهم أخر تسمى المسيبية والمحمدية» .

(116) أعجمي هنا كما في استخدامات اللغة العربية الكثيرة الأخرى تعني الأجنبي وليس الفارسي بالضرورة . يقال كلام فيه عُجمة أي تشوبه شوائب ليس من العربية بشيء . و«لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى» أي بين عربي وغير عبي .

(117) من الواضح في السياق أن الخليفة العباسي المقتدر كان قد وجّه أربعة آلاف دينار للملك ، ومن الواضح في هذه الفقرة أن الدنانير قد اختفت . هل أخفى فريق ابن فضلان الدراهم ، هل اقتسمها وحجبها عن الملك؟ من كان قد أخفاها أو سرقها؟ هل هو المكلف الإداري بحملها؟ أسئلة لا أجوبة عنها .

(118) استدفّ الأمر : استتبّ واستقام وتهيأ .

(119) وهو ما يرافق الثالث من آذار– مارس سنة 922م .

(120) رباط : رباط الخيل مرابطها لخمس منها فما فوقها . والرباط هو ملجأ الفقراء من الصوفية بعد عصر ابن فضلان .

بباب الترك ، ثم رحلنا من الغد ، فنزلنا منزلاً يقال له جيت ، وجاءنا الثلج حتى مشت الجمال إلى ركبها فيه فأقمنا بهذا المنزل يومين .

ثم أوغلنا في بلد الترك لا نلوي على شيء ولا يلقانا أحد في برية قفر بغير جبل ، فسرنا فيها عشرة أيام ، ولقد لقينا من الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج الذي كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف ، ونسينا كل ما مر بنا وأشرفنا على تلف الأنفس .

ولقد أصابنا في بعض الأيام برد شديد وكان تكين يسايرني[121] وإلى جانبه رجل من الأتراك يكلمه بالتركية فضحك تكين وقال : إن هذا التركي يقول لك : أي شيء يريد ربنا منا هوذا يقتلنا بالبرد ولو علمنا ما يريد لرفعناه إليه؟ فقلت له : قلْ له يريد منكم أن تقولوا لا إله إلا الله فضحك وقال : لو علمنا لفعلنا[122] .

ثم صرنا بعد ذلك إلى موضع فيه من حطب الطاغ[123] شيء عظيم فنزلناه ، وأوقدت القافلة واصطلوا[124] ونزعوا ثيابهم وشرّروها[125] .

ثم رحلنا فما زلنا نسير في كل ليلة من نصف الليل إلى وقت العصر أو إلى الظهر بأشد سير يكون وأعظمه ، ثم ننزل ، فلما سرنا خمس عشرة ليلة ، وصلنا إلى جبل عظيم كثير الحجارة وفيه عيون تنجرف عبره وبالحفرة تستقر الماء .

فلما قطعناه أفضينا إلى قبيلة من الأتراك يعرفون بالغزية[126] وإذا هم بادية لهم

(121) المسايرة هي المجاراة والسير مع رفيق الرحلة .

(122) ويضيف كريكتون هذه الفقرة : «ثم قلت : أخبره أن الله يريد فقط أن تقول لا إله إلا الله . فضحك التركي وأجاب : لو كنت أعرفه لقلت ذلك» . غيبة .

(123) الطاغ : مشروحة في مكان آخر آنفاً .

(124) اصطلى بالنار أي تدفأ بها .

(125) شرّروها أي نشروها . والكلمة ما زالت مستخدمة في بعض العاميات العربية : شرّوها .

(126) الغزية : تعريب لكلمة Oguz ، وقد جاء في تعقيب الدكتور سامي الدهان نقلاً عن الاصطخري : «وديار الأتراك متميزة ، فأما الغزية فإن حدود ديارهم ما بين الخزر وكيماك» . وفي دائرة المعارف الإسلامية أن الغز سكنوا منذ القرن الرابع بخارى ، ومشوا أطراف الفولغا وإلى الدانوب ، وعمّروا شرقي أوربا ، والسلجوقيون جاؤوا من الغز .

بيوت شعر يحلون ويرتحلون ترى منهم الأبيات في كل مكان ، ومثلها في مكان آخر على عمل البادية وتنقلهم وإذا هم في شقاء ، وهم مع ذلك كالحمير الضالة ، لا يدينـون لله بدين ولا يرجعون إلى عقل ولا يعبدون شيئاً ، بل يسمُّون كبراءَهم أرباباً[127] ، فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيء قال له : يا رب إيش[128] أعمل في كذا وكذا وأمرهم شورى بينهم غير أنهم متى اتفقوا على شيء وعزموا عليه جاء أرذلهم وأخسُّهم فنقض ما قد أجمعوا عليه .

وسمعتهم يقولون : لا إله إلا الله محمد رسول الله تقرُّباً بهذا القول إلى من يجتاز بهم من المسلمين لا اعتقاداً لذلك ، وإذا ظلم أحد منهم أو جرى عليه أمر يكرهه رفع رأسه إلى السماء وقال : بير تنكري ، وهو بالتركية الله الواحد لأن بير بالتركية واحد وتنكري : الله بلغة الترك . ولا يستنجون[129] من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة[130] ولا غير ذلك ، وليس بينهم وبين الماء عمل خاصة في الشتاء ، ولا يستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم ، كذلك لا تستر المرأة شيئاً من بدنها عن أحدٍ من الناس .

ولقد نزلنا يوماً على رجل منهم فجلسنا وامأة الرجل معنا فبينا هي تحدثنا إذ كشفت فرجها وحكَّته ، ونحن ننظر إليها فسترنا وجوهنا وقلنا : أستغفر الله ، فضحك زوجها وقال للترجمان : قل لهم تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه فلا يوصل إليه هو

---

(127) أرباب : أليس المقصود بذلك أنهم كانوا يسمون كبراءهم (سادة) بالأحرى وليس الأرباب بالمعنى الديني المعروف؟ فاللغات جميعها يمكن أن تطلق على (السيد) وصاحب الأمر والنهي ، لفظة الرب بمعنى المتسيِّد ، عالي الشأن . في العربية كذلك نقول (رب البيت) أو ربته من دون أية إحالة إلى الرب جل وعلا . لذلك فإنني أشك باستخدام الترك كلمة (الأرباب) بالمعنى الذي يذكره هنا ابن فضلان .

(128) أيش كلمة من فصيح الكلام وهي اختصار لأي شيء ، وتردُ كثيراً في أمهات كتب التاريخ .

(129) استنجى : النَّجْو هو ما يخرج من البطن من ريح وغائط ، واستنجى : استتر بنجوة وهي المرتفع من الأرض ، واستنجى : تطهَّر بالماء وغيره .

(130) الجنابة : حال من ينزل منه مَنِيٌّ ، أو يكون منه جماع .

خير من أن تغطيه وتمكّن منه . وليس يعرفون الزنا ومن ظهروا منه على شيء من فعله شقُّوه بنصفين ، وذلك أنهم يجمعون بين أغصان شجرتين ثم يشدُّونه بالأغصان ويرسلون[131] الشجرتين فينشقّ الذي شُدّ إليهما .

وقال بعضهم وسمعني أقرا قرآناً فاستحسن القرآن وأقبل يقول للترجمان قل له : لا تسكت . وقال لي هذا الرجل يوماً على لسان الترجمان : قل لهذا العربي : أَلِرَبّنا عزّ وجلّ امرأة؟ فاستعظمت ذلك وسبّحت الله واستغفرته ، فسبّح واستغفر كما فعلت ، وكذلك رسم[132] التركي كلّما سمع المسلم يسبّح ويهلّل قال مثله .

ورسوم تزويجهم[133] وهو أن يخطب الواحد منهم إلى الآخر بعض حرمه : إما ابنته أو أخته أو بعض من يملك أمره على كذا وكذا ثوب خوارزمي[134] فإذا وافقه حملها إليه ، وربّما كان المهرُ جمالاً أو دواب أو غير ذلك ، وليس يصل الواحد إلى امرأته حتى يوفي الصداق الذي قد وافق وليُّها عليه ، فإذا وفّاه إياه جاء غير محتشم حتى يدخل إلى المنزل الذي هي فيه فيأخذها[135] بحضرة أبيها وأمها وإخوتها ، فلا يمنعونه من ذلك .

وإذا مات الرجل وله زوجة وأولاد تزوّج الأكبرُ من ولده بامرأته إذا لم تكن أمه ، ولا يقدر أحد من التجار ولا غيرهم أن يغتسل من جنابة بحضرتهم إلا ليلاً ، من حيث لا يرونه ، وذلك أنهم يغضبون ويقولون : هذا يريد أن يسحرنا لأنه قد تفرس[136] في الماء ويغرمونه مالاً .

---

(131) أرسل الشيء : أطلقه وأهمله ، وهنا بمعنى أنهم يجذبون الشجرتين إلى ناحيتين مختلفتين ثم يطلقونهما .

(132) الرسم : العادة والعرف .

(133) أي عاداتهم في الزواج .

(134) ثوب خوارزمي : مصنوع في خوارزم وكانت مشهورة بجودة ثيابها . انظر القزويني مثلاً .

(135) يأخذ المرأة أي يجامعها ويفتضُّها ، والفعل (يأخذها) مستعمل بهذا المعنى في العراق اليوم .

(136) التفرُّس : من فرَسَ الأمر فراسة أي أدرك باطنه بالظنّ الصائب . وتفرَّس في الشيء نظر وتثبَّت ، كأنه يقرأ فيه غيباً .

ولا يقدر أحد من المسلمين أن يجتاز ببلدهم حتى يجعل له منهم صديقاً ينزل عليه ، ويحمل له من بلد الإسلام ثوباً ولامرأته مقنعة[137] وشيئاً من فلفل[138] وجاورس[139] وزبيب وجوز فإذا قدم على صديقه ضرب له قبة وحمل إليه من الغنم على قدره حتى يتولّى المسلم ذبحها ، لأن الترك لا يذبحون وإنما يضرب الواحد منهم رأس الشاة حتى تموت .

وإذا أراد الرجل منهم الرحيل وقد قام عليه شيء من جماله ودوابه أو احتاج إلى مال ترك ما قد قام عند صديقه التركي ، وأخذَ من جماله ودوابه وماله حاجته ورحل ، فإذا عاد من الوجه الذي يقصده ، قضاه[140] ماله وردَّ إليه جماله ودوابه .

وكذلك لو اجتاز بالتركي إنسان لا يعرفه ثم قال : أنا ضيفك وأنا أريد من جمالك ودوابك ودراهمك ، دَفعَ إليه ما يريد ، فإن مات التاجر في وجهه ذلك وعادت القافلة لقيهم التركي وقال : أين ضيفي؟ فإن قالوا : مات ، حط القافلة ثم جاء إلى أنبل تاجر يراه فيهم ، فحلَّ متاعه وهو ينظر ، فأخذ من دراهمه مثل ماله عند ذلك التاجر بغير زيادة حبة[141] ، وكذلك يأخذ من دوابه وجماله ، وقال : ذلك ابن عمك وأنت أحق من غرم[142] عنه ، وإن فرَّ فعل أيضاً ذلك الفعل وقال له : ذلك مسلم مثلك ، خذ أنت منه ، وإن لم يوافق المسلم ضيفه في الجادة سأل عن بلاده : أين هو؟ فإذا أرشد إليه سار في طلبه مسيرة أيام حتى يصير إليه ، ويرفع ماله عنده وكذلك ما يهديه له .

وهذه أيضاً سبيل[143] التركي إذا دخل الجرجانية سأل عن ضيفه ، فنزل عليه

(137) مقنعة وقناع هو ما تغطي به المرأة رأسها وتستر وجهها ، ويقال كذلك للرجل . ولعله برقع على وجه النساء كما في معجم دوزي للملابس .

(138) الفلفل : نبات من الفصيلة الفلفلية ، من نباتات البلاد الحارة ، يُستعمل مسحوق ثماره في الطعام .

(139) الجاورس : حبوب الدخن . معرَّبة .

(140) قضاه ماله أي ردَّ إليه ماله .

(141) الحبة : سدس ثمن الدرهم تساوي واحداً على ٨٤ درهماً .

(142) غرم : دفع مالاً وأدّاه عن غيره .

(143) السبيل : الطريقة والعادة .

حتى يرتحل ، ومتى مات التركي عند صديقه المسلم ، واجتازت القافلة وفيها صديقه قتلوه وقالوا : أنت قتلته بحبسك إياه ولو لم تحبسه لما مات ، وكذلك إن سقاه نبيذا فتردّى[144] من حائط[145] قتلوه به ، فإن لم يكن في القافلة عمدوا[146] إلى أجَلّ من فيها فقتلوه .

وأمر اللواط عندهم عظيم جداً . ولقد نزل على حي كوذركين- وهو خليفة ملك الترك- رجل من أهل خوارزم ، فأقام عند ضيف له مدة في ابتياع غنم ، وكان للتركي ابن أمرد[147] ، فلم يزل الخوارزمي يداريه[148] ويراوده[149] عن نفسه حتى طاوعه على ما أراد ، وجاء التركي فوجدهما في بنيانهما[150] فرفع التركي ذلك إلى كوذركي فقال له : اجمع الترك . فجمعهم ، فلمَّا اجتمعوا قال للتركي : بالحقّ تحب أن أحكم أم بالباطل؟ قال : بالحق قال : أحضر ابنك . فأحضره فقال : يجب عليه وعلى التاجر أن يقتلا جميعاً ، فامتعض التركي من ذلك وقال : لا أسلِّم ابني فقال : فيفتدي التاجر نفسه ، ففعل ودفع للتركي غنماً للفعل[151] بابنه ، ودفع إلى كوذركين أربعمئة شاة لما رفع عنه ، وارتحل عن بلد الترك ، فأول من لقينا من ملوكهم ورؤسائهم ينال الصغير[152] وقد كان أسلم فقيل له : إن أسلمت لم ترأسنا ، فرجع عن إسلامه ، فلمَّا وصلنا إلى الموضع الذي هو فيه قال : لا أتركُكم تجوزُون لأن هذا شيء ما سمعنا به

---

(144) تردَّى : سقط .

(145) الحائط هنا هو العقبة .

(146) عمدوا : تقصَّدوا وذهبوا إلى .

(147) أمرد : مرِدَ الغلام : طرَّ شاربه وبلغ خروج لحيته ولم تبدِ .

(148) يداريه : أي يتلطَّف به ، والكلمةُ ما زالت مستخدمةً بهذا المعنى في العراق .

(149) راود : خادع وراوغ ، وراوده على نفسه أي أراد منه الفاحشة .

(150) بنيانهما أي في مخدعهما يمارسان الفاحشة .

(151) الفعل بابنه : أي ممارسة اللُّواط معه . والاستخدام نفسه ما زال مستخدماً في بعض الحكيَّات العربية .

(152) ينال الصغير : وهو في تواريخ الترك ، حسب د . الدهان ، «كجك ينال» ، وهو وليُّ العهد .

قط ولا ظننا أنه يكون . فرفقنا به إلى أن رضي بخفتان جرجاني[153] يساوي عشرة دراهم وشقة[154] باي باف[155] وأقراص خبز وكف زبيب ومئة جوزة ، فلمّا دفعنا هذا إليه سَجَدَ لنا ، وهذا رسمهم[156] إذا أكرم الرجل الرجل سجد له ، وقال : لولا أن بيوتي نائية عن الطريق لحملت إليكم غنماً وبُرّاً[157] ، وانصرف عنّا وارتحلنا .

فلمّا كان من غد لقينا رجلٌ واحدٌ من الأتراك ، دميمُ الخِلْقَةِ ، رَثُّ الشياب ، قميء[158] المنظر ، خسيس المخبر ، وقد أخذنا مطر شديد فقال : قفوا ، فوقفت القافلة بأسرها وهي نحو ثلاثة آلاف دابة وخمسة آلاف رجل ، ثم قال : ليس يجوز منكم أحدٌ . فوقفنا طاعة لأمره ، فقلنا له : نحن أصدقاء كوذركين ، فأقبل يضحك ويقول : من كوذركين أنا أخرى على لحية كوذركين . ثم قال : بكند يعني الخبز بلغة خوارزم ، فدفعت إليه أقراصاً ، فأخذها وقال : مرُّوا قد رحمتكم .

قال : وإذا مرض الرجل منهم وكان له جوارٍ وعبيد ، خدموه ولم يقربه أحدٌ من أهل بيته ، ويضربون له خيمةً ناحية من البيوت ، فلا يزال فيها إلى أن يموت أو يبرأ ، وإن كان عبداً أو فقيراً رموا به في الصحراء وارتحلوا عنه .

وإذا مات الرجل منهم حفروا له حفيرة كبيرة كهيئة البيت وعمدوا إليه فألبسوه قرطقه[159] ومنطقته[160] وقوسه ، وجعلوا في يده قدحاً من خشب فيه نبيذٌ ، وتركوا بين يديه إناء من خشب فيه نبيذ ، وجاءوا بكل ماله فجعلوه معه في ذلك البيت ،

---

(153) خفتان جرجاني : :الخفتان هو الدرع من اللبد ، والجمع خفاتين . والمقصود أنها مصنوعة بجرجان .

(154) الشقة : نصف الشيء إذا شُقَّ ، والشقة القطعة المشقوقة أو المنشقَّة ، والشقة ما شُق مستطيلا من الثوب والعصا وهو ما يريده ابن فضلان هنا .

(155) باي باف : لباس للمرأة حسب د . الدهان .

(156) رسمهم : تقليدهم .

(157) البُر بالضم هو القمح والواحدة بُرَّة .

(158) قميء : بشع المنظر .

(159) القرطق : سبق شرحها .

(160) منطقة الرجل ومنطقه هو ما يشدُّ به الوسط .

ثم أجلسوه فيه ، فسقفوا البيت عليه وجعلوا فوقه مثل القبة من الطين ، وعمدوا إلى دوابه على قدر كثرتها فقتلوا منها مئة رأس إلى مئتي رأس إلى رأس واحد ، وأكلوا لحومها إلا الرأس والقوائم والجلد والذنب ، فإنهم يصلبون ذلك على الخشب ، وقالوا : هذه دوابه يركبها إلى الجنة . فإن كان قتل إنساناً وكان شجاعاً نحتوا صوراً من خشب على عدد من قتل وجعلوها على قبره ، وقالوا : هؤلاء غلمانه يخدمونه في الجنة .

وربما تغافلوا[161] على قتل لدواب يوماً أو يومين ، فيحثُّهم شيخٌ من كبارهم فيقول : رأيت فلاناً- يعني الميت- في النوم فقال لي : هو ذا تراني وقد سبقني أصحابي وشُقِّقت رجلاي من اتّباعي لهم ، ولست ألحقهم وقد بقيت وحدي ، فعندها يعمدون إلى دوابه فيقتلونها ويصلبونها عند قبره . فإذا كان بعد يوم أو يومين ، جاءهم ذلك الشيخ وقال : قد رأيت فلاناً وقال : عرف أهلي وأصحابي أني قد لحقت من تقدمني واسترحت من التعب .

قال : والترك كلهم ينتفون لحاهم إلا أسبلتهم[162] ، وربما رأيت الشيخ الهرم منهم وقد نتف لحيته وترك شيئاً منها تحت ذقنه وعليه البوستين[163] فإذا رآه إنسان من بعد لم يشك أنه تيس .

وملك الترك الغزية يقال له يبغو[164] وهو اسم الأمير وكل من ملك هذه القبيلة فبهذا الاسم يُسمى ، ويقال لخليفته كوذركين وكذا كل من يخلف رئيساً منهم يقال له : كوذركين . ثم نزلنا بعد ارتحالنا من ناحية هؤلاء بصاحب جيشهم ويقال له «أترك

(161) تغافلوا : تجاهلوا .

(162) الأسبلة والسَبَلة : هي مقدم اللحية . أما أسبلة الشرب (الماء للسابلة) فهي محدثة نسبياً .

(163) البوستين : سبق شرحها .

(164) يبغو : لقب لكثير من ملوك الأتراك حسب د . دهان . أما ابن فضلان فيوحي ظاهر نصّه بأنه الاسم الشخصي للأمير ، وربّما قد وهم ، ولكنه يستدرك فوراً بالقول : «وكل من ملك هذه القبيلة فبهذا الاسم يُسمى» .

بن القطغان»[165] فضرب لنا قباباً تركية[166] وأنزلنا فيها وإذا له ضبنة[167] وحاشية وبيوت كبيرة ، وساق إلينا غنماً وقاد دواب لنذبح الغنم ونركب الدواب ، ودعا هو جماعةً من أهل بيته وبني عمِّه ، فقتل[168] لهم غنماً كثيرة ، وكنا قد أهدينا إليه هدية من ثياب وزبيب وجوز وفلفل وجاورس ، فرأيت امرأته وقد كانت امرأة أبيه وقد أخذت لحماً ولبناً وشيئاً مما أتحفناه[169] به ، وخرجتْ من البيوت إلى الصحراء ، فحفرت حفيرة ، ودفنت الذي كان معها فيها ، وتكلَّمت بكلام فقلت للترجمان : ما تقول؟ قال : تقول هذه هدية للقطغان أبي الترك أهداها له العرب . فلمَّا كان في الليل دخلتُ أنا والترجمان إليه وهو في قبته جالسٌ ومعنا كتاب نذير الحرمي إليه يأمره فيه بالإسلام ، ويحضُّه عليه ، ووَجَّهَ إليه خمسين ديناراً فيها عدة دنانير مسيبية وثلاثة مثاقيل[170] مسك وجلود أديم[171] وثياب مروية[172] وقطعنا له منها قرطقين[173] وخف أديم[174] وثوب ديباج[175] وخمسة أثواب حرير فدفعنا إليه هديته ودفعنا إلى امرأته مقنعة[176] وخاتماً .

---

(165) لم نعثر على سند لهذا الملك في المراجع التي بين أيدينا .

(166) القباب التركية : كانت متميِّزةً بشكلها وزخارفها ومختلفة عن القباب التي عرفها المصنِّف .

(167) ضبنة (على وزن فرحة) : العيال يضطبنهم الرجل في كنفه وناحيته . يقال خرج من ضبنته أي في أهله وعياله . والضبنة بضمٍّ أو كسر الضاد من الرجل بطانته وحاشيته والضبنة من لا غناء فيه ولا كفاية من الرفقاء أو الحشم .

(168) أي ذبح لهم غنماً .

(169) أتحفناه به : أهديناه له .

(170) المثقال : زنة درهم وثلاثة أسباع درهم ، حسب الخوارزمي في (مفاتيح العلوم) .

(171) الأديم : الجلد .

(172) ثياب منسوبة لمرو .

(173) القرطق سبق شرحها .

(174) خفُّ أديم : نعال من الجلد .

(175) الديباج : ضرب من الثياب سَداه ولحمته حرير . فارسي معرَّب .

(176) مقنعة : سبق شرحها .

وقرأت عليه الكتاب، فقال للترجمان: لست أقول لكم شيئاً حتى ترجعوا وأكتب إلى السلطان بما أنا عازم عليه، ونزع الديباجة[177] التي كانت عليه ليلبس الخلع التي ذكرنا، فرأيت القرطق[178] الذي تحتها وقد تقطع وسخاً، لأن رسومهم أن لا ينزع الواحد منهم الثوب الذي يلي جسده حتى ينتثر قطعاً، وإذا هو قد نتف لحيته كلَّها وسباله فبقي كالخادم، ورأيت الترك يذكرون أنه أفرسهم[179].

ولقد رأيته يوماً وهو يسايرنا على فرسه إذْ مرَّت وزّة[180] طائرة فأوتر قوسَه، وحرَّك دابَّته تحتها ثم رماها فإذا هو قد أنزلها.

فلمَّا كان في بعض الأيام وجه خلف القوَّاد الذين يلونه وهم: طرخان وينال وابن أخيهما وإيلغز، وكان طرخان أنبلهم وأجلَّهم وكان أعرج أعمى أشلّ[181] فقال لهم: إن هؤلاء رسل ملك العرب إلى صهري ألمش بن شلكي[182] ولم يخيّر[183] لي أن أُطلقهم إلا عن مشورتكم، فقال طرخان: هذا شيء ما رأيناه قطّ ولا سمعنا به ولا اجتاز بنا رسول سلطان مُذْ كُنَّا نحن وآباؤنا[184] وما أظن إلا أنَّ السُّلطان قد أعمل الحيلة ووجَّه هؤلاء إلى الخزر[185] ليستجيش بهم علينا، والوجه أن يقطع هؤلاء

(177) الديباجة ههنا يُقصد بها الثوب الحسن الذي كان يرتديه.

(178) القرطق كلمة سبق شرحها.

(179) أفرُسهم: أكثرُهم فراسة.

(180) الوزّة: واحدة الوز أو الإوَز: نوع من الطيور يشبه البطّ ولكنَّه أكبرُ منه جسماً وأطولُ عنقاً.

(181) أشلّ: مصابٌ بالشلل، أو يبس عضوُه فبطُلَتْ حركتُه أو ضَعُفَتْ.

(182) ألمش بن شلكي: هو ألمش بن يلطوار.

(183) يخيِّر لي: يبدو لي.

(184) يذكر د. غيبة أن هذه الجملة هي دليلٌ على أن بعثة ابن فضلان كانت الأولى من نوعها.

(185) الخزر: الخزر هم إحدى القبائل التي تنتمي إلى الشّعب المغولي والتي هاجر في القرن السادس الميلادي إلى منطقة القفقاز تاركةً موطنها الأصلي في منطقة وسط آسيا الصغرى. في منتصف القرن الثامن الميلادي ولأسباب اعتبرت تكتيكية أكثر منها دينية اعتنق الخزر الديانة اليهودية ليكونوا بمنأى عن الصراع الدائر بين القوَّتين العظميين ـ الإسلامية والبيزنطية ـ آنذاك، حيث استطاع الخزر تكوين شبه إمبراطورية تخصُّهم في منطقة القفقاز. ما بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر الميلادي وبسبب العداء لها انهارت إمبراطورية الخزر مما أدى إلى هجرة اليهود منهم إلى أوروبا وخاصة بولندا.

الرسل نصفين نصفين ونأخذ ما معهم .

وقال آخر منهم : لا بلْ نأخذ ما معهم ونتركهم عراةً يرجعون من حيث جاءوا . وقال آخر : لا ولكنْ لنا عند ملك الخزر أسراء[186] فنبعث بهؤلاء نفادي بهم أولئك . فما زالوا يتراجعون[187] بينهم هذه الأشياء سبعة أيام ونحن في حالة الموت حتى أجمع رأيهم على أن يخلوا سبيلنا ونمضي ، فخلعنا على طرخان خفتاناً مروياً[188] وشقتين باي باف[189] ، وعلى أصحابه كلٌّ واحد قرطقاً وكذلك على ينال ودفعنا إليهم فلفلاً وجاورس[190] وأقراصاً من خبز ، وانصرفوا عنا .

ورحلنا حتى صرنا إلى نهر يغندي[191] فأخرج الناس سُفَرَهم[192] وهي من جلود الجمال فبسطوها وأخذوا بالأثاث[193] من الجمال التركية لأنها مدوَّرة فجعلوها في جوفها حتى تمتدَّ ، ثمَّ حشوها بالثِّياب والمتاع فإذا امتلأتْ جلس في كل سُفْرَة جماعةٌ من خمسةٍ وستةٍ وأربعةٍ وأقل وأكثر ، ويأخذون بأيديهم خشب الخدنك[194]

(186) أُسرَاء : أسرى .

(187) يتراجعون : أي يُراجِعون ويقلبون الفكرة .

(188) خفتان مروي : سبق شرحُها وهي منسوبةٌ كذلك إلى مرو .

(189) شقتين باي باف : قطعتين من قماش باي باف ، مشروحة آنفاً كذلك .

(190) جميع الكلمات في هذه الجملة مشروحة آنفاً .

(191) يغندي Yagindi : وهو الآن Zayindi .

(192) السُفَرَ : السُفرة هي طعام يُصنع للمسافر ، وهي ما يُحمل فيه هذا الطعامُ كما هي المائدةُ وما عليها من طعام . المقصود هو المائدةُ الجلديَّةُ .

(193) يقترح د . دهان (الأثاث) بدلاً من كلمة (الأناث) التي وجدها في مخطوطة مشهد . على أنه يقول إنَّ مقترحه لا معنى لها هنا رغم ذلك .

(194) خشب الخدنك : شجر الخدنك هو الحور الأبيض ، أو الخشب المعروف بالبتولا .

فيجعلونه كالجاديف ، ولا يزالون يجدفون والماءُ يحملُها وهي تدور حتى نعبر[195] ، فأمَّا الدوابُّ والجمال فإنه يُصاح بها فتعبر سباحةً ، ولا بدَّ أنْ تعبر جماعةٌ من المقاتلة[196] ومعهم السلاحُ قبل أن يعبر شيءٌ من القافلةِ ليكونوا طليعةً للنَّاسِ خيْفَةً من الباشغرد[197] أن يكبسوا الناسَ وهم يعبرون .

---

(195) هذا يعني أنهم عملوا من سُفَرِهم المصنوعةِ من جلود الجمالِ نوعاً من القوارب أو القفف (الشكل الدائري للقفة العراقية التي كانت موجودة حتى الأربعينات ليس بعيداً عما يصوِّره ابن فضلان هنا) ، وصاروا يجذفون بخشب شجر الحور من أجل اجتياز النَّهر .

(196) المقاتِلة : ومفردها المقاتِل وهو من يصلح للقتال أو يباشره .

(197) الباشغرد : أو البشكير . يذكر ياقوت أن الباشغرد هم (باش جرد) أو (باش قرد) من الأتراك ، وهم شرُّ هذه الأقوام . على أنه يذكر في مادة «باشغرد» من كتابه الشهير أنه قد تعرَّف إلى الباشغرد– وهم مسلمو المجر اليوم في الحقيقة– في العام 626 للهجرة . وأنه التقى أحدهم في حلب : «وأما فإني وجدت بمدينة حلب طائفةً كبيرةً يُقال لهم الباشغرديَّة ، شقر الشعور والوجوه ، يتفقَّهون على مذهب الإمام أبي حنيفة ، رضي الله عنه» .هويمضي للقول «فسألت رجلاً منهم عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الإفرنج يُقال لهم الهنكر (أي الهنغار) ، ونحن مسلمون رعية لملكهم في طرف بلاده نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكاد تكون بليدة ، إلاَّ أنَّ ملك الهنكر لا يمكِّننا أن نعمل على شيء منها سوراً خوفاً من أن نعصي عليه ، ونحن في وسط بلاد النصرانية ، فعن شمالنا بلاد الصقالبة ، وقبلينا بلاد الباب يعني روميا ، والباب رئيس الإفرنج ، وهو عندهم نائب المسيح ، كما هو أمير المؤمنين عند المسلمين ، ينفذ أمره في جميع ما يتعلَّق بالدين في جميعهم . قال : ولساننا لسان الإفرنج وزيُّنا زيُّهم ونخدم معهم في الجنديَّةِ ونغزو معهم كلَّ طائفة لأنَّهم لا يُقاتلون إلاَّ مخالفي الإسلام» .وهويستطرد صاحب (معجم البلدان) فيقول «فسألتُهم عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر؟ . فقال : سمعتُ جماعةً من أسلافنا يتحدَّثون أن قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل سبعةُ نفرٍ من المسلمين في بلاد البلغار ، وسكنوا بيننا وتلطَّفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضَّلال ، وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام ، فهدانا الله ، والحمد لله ، فأسلمنا جميعاً ، وشرح اللهُ صدورَنا للإيمان ، ونحن نقدم إلى هذه البلاد ونتفقَّه فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلُنا وولَّونا أمور دينهم» .

فعبرنا يغندي[198] على هذه الصِّفة التي ذكرنا ، ثم عبرنا بعد ذلك نهراً يُقال له جام[199] في السَّفر أيضاً ، ثم عبرنا جاخش[200] ثم أذل[201] ثم أردن[202] ثم وارش[203] ثم أختي[204] ثم وتبا[205] وهذه كلُّها أنهارٌ كبارٌ .

ثم صرنا بعد ذلك إلى البنجاك[206] وإذا هم نزول على ماءٍ شبيهٍ بالبحرِ غيرِ جارٍ وإذا هم سمر شديدو السُّمرة ، وإذا هم محلّقو اللحى فقراءُ ، خلافُ الغزية ، لأنّي رأيتُ من الغزية من يملك عشرة آلاف دابّة ومئة ألف رأس من الغنم ، وأكثر ما ترعى من الغنم ما بين الثلج تبحث بأظلافها تطلب الحشيشَ ، فإذا لم تجده قضمت الثلج فسمنتْ غايةَ السِّمَنِ. فإذا كان الصَّيْفُ وأكلت الحشيشَ هزلتْ ، فنزلنا على البجناك يوماً واحداً ثم ارتحلنا فنزلنا على نهر جيخ[207] وهو أكبرُ نهرٍ رأيناه وأعظمُه وأشدُّه جرية ، ولقد رأيتُ سفرةً انقلبتْ فيه فغرق من كان فيها وذهبتْ رجال كثير من الناس وغرقتْ عِدّةُ جمال ودوابٍّ ولم نعبرْه إلا بجهد .

---

(198) يغندي : نهر مضى ذكرُه .

(199) جام : يرى فراي أنه نهر جيم Gim. د . دهان .

(200) جاخش : هو نهر سجير Sagir .

(201) أذل : هو الآن نهر اوييل Oyil .

(202) أردن : هو الآن نهر زاكسباي Zaqsibay على الأغلب في تقديرات د . دهان .

(203) وارش : لعلع حسي دهان باسم نهر كالداغايتتي ?Qaldagayt .

(204) أختي : لعلّه حسب دهان فرعٌ من نهر أشي صاي Assi Say .

(205) وتبا : يقترح أحد المستشرقين أن يقرأ وَتبا أو أوتبا وهو فرعٌ من الأورال Yay?q .

(206) البنجاك : قبيلةٌ من الأتراك ، من قبائل الغز من القفجق ، وأصلُهم من تركستان الصينيّة . كانت مساكنُهم في الأورال والفولغا بجانب الخزر . وكان الغز في الشمال الشرقي . وقد طردهم الخز حوالي سنة 860 م فلم يصادف منهم ابنُ فضلانَ إلا القليلَ . د . دهان بتصرُّف .

(207) نهر جيخ : رأى بعضُ المستشرقين أنه فرعٌ من جيحون ، من دون يقين .

ثم سرنا أياماً وعبرنا نهرَ جاخا[208] ثم بعده نهر أرخز[209] ثم باجاغ[210] ثم سمور[211] ثم كنال[212] ثم نهر سوخ[213] ثم نهر كنجلو[214] .

ووقفنا في بلدِ قوم من الأتراك يُقال لهم الباشغرد[215] فحذَّرناهم أشدَّ الحذر ، وذلك أنَّهم شرُّ الأتراكِ وأقذرُهم وأشدُّهم إقداماً على القتل ، يَلقى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فيفزّر[216] هامته ويأخذها ويتركه . وهم يحلقون لحاهم ، ويأكلون القمل ، يتتبَّع الواحد منهم دَرز[217] قرطقه[218] فيقرض القملَ بأسنانه . ولقد كان معنا منهم واحدٌ قد أسلم ، وكان يخدمنا ، فرأيتُه وجد قملةً في ثوبِهِ فقصعَها[219] بظفره ، ثمَّ لحسها وقال لما رآني : جيد .

وكلُّ واحد منهم ينحت خشبةً على قدر الإحليل ويعلِّقها عليه ، فإذا أراد سفراً أو لقاءَ عدوٍّ قبَّلها وسجد لها وقال : يا رب افعل بي كذا وكذا . فقلت للتَّرْجُمَان : سَلْ بعضهم ما حُجَّتُهم في هذاولِمَ جعله ربَّه؟ قال : لأني خرجتُ من مثلِه فلستُ أعرف لنفسي خالقاً غيرَه .

ومنهم من يزعُم أنَّ له اثني عشر ربّاً : للشتاءِ ربٌّ وللصَّيْفِ ربٌّ وللمطرِ ربٌّ وللريحِ

---

(208) نهر جاخا : أو جاخان ، واسمه الآن جاغان Gagan كما يرى فراي . دهان

(209) نهر أرخز : لعلع تالفوكا Talvoka بين الأورال والفولغا . دهان .

(210) باجاغ : هو الآن موشا Moca فرع للفولغا . دهان .

(211) سمور : هو الآن سامار أو سَمّار Samar . دهان .

(212) كنال : وهو نهر كينل Kinel . دهان .

(213) سوخ : وهو سوك Sok . دهان .

(214) كنجلو : ولعلَّه الآن كوندورشا Qundurca . دهان .

(215) الباشغرد : أنظر الشرح آنفاً .

(216) يفزّر : يفسخ ويشقق ويكسر .

(217) الدرز هو موضع الخياطة ، وهو الارتفاع الذي يحصل في الثوب إذا جمع طرفاه في الخياطة .

(218) قرطق : مشروح آنفاً .

(219) قصع القملة قتلها .

ربٌّ وللشَّجَرِ ربٌّ وللنَّاسِ ربٌّ وللدوابِّ ربٌّ وللماءِ ربٌّ ولِلَّيلِ ربٌّ وللنَّهارِ ربٌّ وللموتِ ربٌّ وللأرضِ ربٌّ، والربُّ الذي في السماءِ أكبرُهم إلا أنّه يجتمع مع هؤلاءِ باتفاق ويرضى كلٌّ واحدٍ منهم بما يعمل شريكُه تعالى اللهُ عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيراً، ورأينا طائفةً منهم تعبد الحيَّات، وطائفةً تعبد السَّمك، وطائفةً تعبد الكراكي[220] فعرفوني أنهم كانوا يحاربون قوماً من أعدائِهم فهزموهم وأن الكراكي صاحت وراءهم ففزعوا وانهزموا، بعدها هزموا فعبدوا الكراكي لذلك وقالوا: هذه ربُّنا وهذه فعالاته هزم أعداءنا فهم يعبُدونها لذلك[221].

قال: وسرنا من بلد هؤلاء فعبرنا نهر جرمشان[222] ثم نهر أورن[223] ثم نهر أورم[224] ثم نهر بياناخ[225] ثم نهر وتيغ[226] ثم نهر نياسنه ثم نهر جاوشيز[227]، وبين النهر والنهر مما ذكرنا اليومان والثلاثة والأربعة وأقلُّ من ذلك وأكثرُ.

---

(220) الكركي: طائر يقرب من الوزِّ، أبتر الذنب، رمادي اللون، يأوي الماءَ أحياناً.

(221) في هذا الموضع ينقل القزويني كذلك عن ابن فضلان: «حكى أحمد بن فضلان رسولُ المقتدرِ بالله إلى ملك الصقالبة لمَّا أسلم فقال: عند ذكر باشغرت وقعنا في بلاد قوم من الترك وجدناهم شرَّ الأتراك وأقذرَهم وأشدَّهم إقداماً على القتل فوجدتهم يقولون: للصَّيْفِ ربٌّ وللشتاءِ ربٌّ وللمطرِ ربٌّ وللريحِ ربٌّ وللشَّجَرِ ربٌّ وللنَّاسِ ربٌّ وللدوابِّ ربٌّ وللماءِ ربٌّ ولِلَّيلِ ربٌّ وللنَّهارِ ربٌّ وللموتِ ربٌّ وللحياةِ ربٌّ وللأرضِ ربٌّ وللسماءِ ربٌّ وهو أكبرُهم إلا أنَّه يجتمع مع هؤلاء بالاتفاقِ ويرضى كلُّ واحدٍ بعملِ شريكِه. وحكي أنه رأى قوماً يعبدُون الكراكي فقلتُ: إنَّ هذا من أعجبِ الأشياءِ! وسألتُ عن سببِ عبادتِهم الكراكي فقالوا: كنَّا نحاربُ قوماً من أعدائِنا فهزمونا فصاحت الكراكي وراءَهم فحسبوها كميناً منَّا فانهزموا، ورجعت الكرَّةُ لنا عليهم فنعبدُها لأنَّها هزمتْ أعداءَنا..».

(222) نهر جرمشان: ذكر فراي أن اسمه جرمشان Girimsan. دهان.

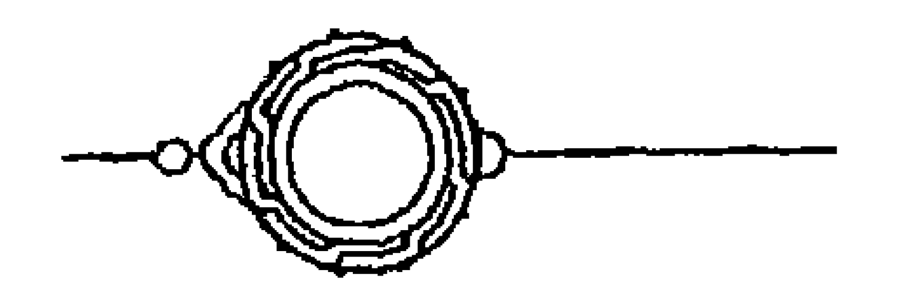
(223) نهر أورن: هو الآن نهر أوران Uran. دهان.

(224) نهر أورم: هو الآن نهرُ أورم Urem. دهان.

(225) نهر بياناخ: هو نهرُ مايانا حسب بعض الباحثين Mayna. دهان.

(226) نهر وتيغ: هو الآن نهرُ أوتكا Utka من الروسية Udga كما يرى كوفالسكي الذي ينقل عنه دهان.

(227) جاوشيز: يرى فراي أنه أكتاي Aqtay. دهان.



فلمّا كنّا من ملك الصقالبة[228] وهو الذي قصدنا له على مسيرةِ يوم وليلة وجّه لاستقبالِنا الملوكَ الأربعةَ الذين تحت يدِه وإخوتَه وأولادَه فاستقبلونا ومعهم الخبزُ واللّحْمُ والجاورس[229] وساروا معنا .

فلمّا صرنا منه على فرسخين تلقّانا هو بنفسِه فلمّا رآنا نزل فخرَّ ساجداً شكراً لله جلَّ وعزَّ ، وكان في كُمِّه دراهمُ فنثرها علينا ونصب لنا قباباً فنزلناها .

وكان وصولُنا إليه يومَ الأحدِ لاثنتي عشرة ليلةً خلتْ من المُحَرَّم سنة عشر وثلاثمئة ، فكانت المسافةُ من الجرجانيَّة إلى بلدِه سبعين يوماً ، فأقمنا يومَ الأحدِ ويومَ الإثنينِ ويومَ الثلاثاءِ ويومَ الأربعاءِ في القِباب التي ضُرِبَتْ لنا حتَّى جمع الملوكَ والقوَّادَ وأهلَ بلده ليسمعوا قراءةَ الكتابِ ، فلمّا كان يومُ الخميسِ واجتمعوا نشرنا المِطْرَدَين[230] اللّذين كانا معنا ، وأسرجنا الدابة بالسرج الموجَّه إليه ، وألبسناه السواد[231] وعمّمناه[232] ، وأخرجتُ كتابَ الخليفة ، وقلتُ له : لا يجوزُ أنْ نجلسَ

(228) يغدو ضرورياً من أجل تجنُّب الخلط التوضيحُ أن بلغاريا الحاليَّةَ تختلف عن بلغاريا أرضِ الصَّقالبةِ التي يعالجُها ابنُ فضلانَ هنا ، فبلغاريا الحديثةُ هي إحدى دولِ البلقانِ وتجاور كلاً من اليونان ويوغسلافيا ورومانيا وتركيا . أمّا بلغاريا مملكةُ الصَّقالبةِ موضوعُ رحلةِ ابنِ فضلانَ فعاصمتُها بُلْغَارُ التي تقع وسط الأراضي الروسيَّةِ على ضِفَافِ نهرِ الفولغا كما قُلنا في مكانٍ آخرَ ، وتبعُد نحو 600 ميلٍ إلى الشرقِ من مدينةِ موسكو اليومَ ، ومن المُعتقدِ أن شعبَ بلغاريا الحديثةِ يمتُّ بصِلَةٍ إلى شعبِ بلغاريا القديمةِ أي الصقالبة ، وقد نشطتْ هجرتُه من الشمالِ الشرقيِّ إلى الجنوبِ الغربيِّ بين سنتي 400 و600 ميلادية . وقد غزا المغولُ بلغاريا القديمةَ سنة 1237م ، ولا يُعرف عنها إلا القليلُ قبل زيارةِ ابنِ فضلان . أنظر د . غيبة (ص24) .

(229) الجاورس : شرحناه آنفاً .

(230) المِطْرَدَين : المطرد بكسرِ الطَّاءِ هو الرَّايَةُ واللِّواءُ وهي دون الأعلامِ والبنود .

(231) والسواد هو شعارُ ولونُ العبّاسيين الرمزيُّ .

(232) عمّمناه : أي ألبسناه العِمَامَةَ .

والكتابُ يُقرأ . فقام على قدميه هو ومن حضر من وجوهِ أهلِ مملكتِه ، وهو رجلٌ بدينٌ بطينٌ[233] جداً

وبدأتُ فقرأتُ صدرَ الكتابِ فلمَّا بلغتُ منه «سلامٌ عليكَ فإنِّي أحمُدُ إليكَ اللهَ الذي لا إلهَ إلا هو» ، قلتُ : رُدَّ على أمير المؤمنينَ السَّلامَ ، فردَّ وردُّوا جميعاً بأسرهم ، ولم يزلْ التَّرْجُمَان يترجم لنا حرفاً حرفاً ، فلمَّا استتممنا قراءَته كبَّروا تكبيرةً ارتجَّتْ لها الأرضُ .

ثم قرأتُ كتابَ الوزيرِ حامدِ بنِ العبَّاسِ[234] وهو قائمٌ ، ثم أمرتُه بالجلوسِ ، فجلسَ عندَ قراءةِ كتابِ نذيرِ الحرمي ، فلمَّا استتممتُه نثر أصحابُه عليه الدَّراهمَ الكثيرةَ ، ثم أخرجتُ الهدايا من الطِّيْبِ والثِّيَابِ واللؤلؤِ له ولامرأته فلم أزلْ أعرضُ عليه وعليها شيئاً شيئاً حتَّى فرغنا من ذلك ثمَّ خلعتُ[235] على امرأته بحضرةِ النَّاسِ وكانتْ جالسةً إلى جنبِه ، وهذه سنَّتُهم وزيُّهم ، فلمَّا خلعتُ عليها نَثَرَ النِّسَاءُ عليها الدَّراهمَ وانصرفنا .

فلمَّا كان بعد ساعةٍ وجَّه إلينا فدخلْنا إليهِ وهو في قُبَّتِه ، والملوكُ عن يمينِه . وأمَرنا أنْ نجلس عن يساره ، وإذا أولادُه جلوسٌ بين يديه ، وهو وحدُه على سريرٍ مغشى بالدّيباج الرومي[236] فدعا بالمائدة فقدّمتْ وعليها اللَّحْمُ المشويُّ وحدُه فابتدأ هو فأخذ سكِّيناً وقطع لُقْمَةً وأكلها وثانيةً وثالثةً ثم احتزَّ قطعةً دفعها إلى «سوسن» الرَّسول ، فلمَّا تناولها جاءته مائدةٌ صغيرةٌ فجعلتْ بين يديه ، وكذلك الرسم[237] لا يمدُّ أحدٌ

---

(233) بطين : كبيرُ البطن .

(234) حامد بن العباس : كان يتولَّى أعمالَ السَّوادِ ، ثم وُزِّرَ للمُقتدرِ . كان كريماً مفضَّلاً ، متجمِّلاً ، سريعَ الطَّيش . اشتغل بالتجارةِ ثمَّ عظُم شأنُه ، ولمَّا وُلِّيَ الوزارةَ كان في الثمانين من عمره ، ولم يكن نصيبُه من الوزارة إلا اللقب والخِلْعَة وكان المدير للأمور علي بن عيسى الذي كان وزيراً من قبل .

(235) الكلام هنا بصيغة المتكلم على لسان ابن فضلان ، وهو فيما ينقله ياقوت بصيغة الجمع كما سنرى بعد قليل في أحد الهوامش .

(236) الديباج الرومي : الحرير الرومي ، وكان مشهوراً بجودته في القرن الرابع ، وكان يُجلب إلى بلاد المسلمين من فرنسا غالباً .

(237) الرسم : العادة .

يدَه إلى الأكلِ حتى يناولِه الملكُ لقمةً ، فساعةً يتناولُها قدْ جاءته مائدةٌ ثم ناولني ، فجاءتني مائدةٌ ، ثم قطع قطعةً وناولها الملكَ الذي عن يمينه ، فجاءته مائدةٌ ، ثم ناول الملكَ الثاني فجاءته مائدةٌ ، ثم ناول الملكَ الرابعَ فجاءته مائدةٌ ، ثمَّ ناول أولادَه فجاءتهم الموائدُ ، وأكلنا كلٌّ واحد من مائدته لا يُشْرِكُهُ فيها أحدٌ ، ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً . فإذا فُرِغَ من الطَّعَام حَمَلَ كلٌّ واحدٍ منهم ما بقي على مائدته إلى منزلِه[238] . فلمَّا أكلنا دعا بشرابِ العَسلِ وهم يسمُّونه السجو[239] ليومِه وليلتِه ،

(238) هنا موضع آخر ينقل فيه القزويني في (آثار البلاد وأخبار العباد) عن ابن فضلان مباشرة : «حكى أحمد بن فضلان لما أرسله المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة وقد أسلم حمل إليه الخلع . وذكر من الصقالبة عاداتٍ عجيبةً منها ما قال : دخلنا عليه وهو جالس على سرير مغشى بالديباج وزوجتُه جالسةٌ إلى جانبه والأمراءُ والملوكُ على يمينه وأولادُه بين يديه فدعا بالمائدة فقدِّمتْ إليه وعليها لحمٌ مشويٌّ فابتدأ الملك : أخذ سكيناً فقطع لقمةً أكلها ثم ثانيةً ثم ثالثةً ثم قطع قطعة دفعها إليَّ فلما تناولتها جاؤوا بمائدة صغيرة ووضعت بين يدي ، وهكذا ما كان أحد يمدُّ يده إلى الأكل حتى أعطاه الملكُ ، فإذا أعطاه الملك جاؤوا له بمائدةٍ صغيرةٍ وضِعتْ بين يديه حتى قدم إلى كل واحد مائدة لا يشاركه فيها أحد . فإذا فرغوا من الأكل حمل كل واحد مائدته معه إلى بيته . ومنها أن كل من دخل على الملك من كبير أو صغير حتى أولاده وإخوته ، فساعة وقوع نظرهم عليه أخذ قلنسوته وجعلها تحت إبطه ، فإذا خرج من عنده لبسها ، وإذا خرج الملك لم يبق أحدٌ في الأسواق والطرقات إلا قام وأخذ قلنسوتَه من رأسه وجعلها تحت إبطه حتى إذا جاوزهم تقلْنسوا بها .

ومنها أنه إن رأوا أحداً عليه سلاحُه وهو يبول أخذوا سلاحَه وثيابَه وجميعَ ما معه وحملوا ذلك على جهله وقلة درايته ، ومن جعل سلاحَه ناحيةً حملوا ذلك على درايته ومعرفته ولم يتعرَّضوا له .

ومنها ما ذكر أنه قال : رأيتُ الرجالَ والنساءَ ينزلون في النهر ويغتسلون عراةً لا يستتر بعضُهم من بعض ولا يزنون البتة . والزنا عندهم من أعظم الجرائم ، ومن زنى منهم كائناً من كان ضربوا له أربع سكك وشدُّوا يديه ورجليه إليها وقطعوا بالفأس من رقبته إلى فخذيه ، وكذلك بالمرأة ويفعلون مثل ذلك بالسَّارق أيضاً» . انتهى .

(239) السجو : أو سوجو وسوجي ، فسَّره المستشرقون بالخمر . ولا يعتقد د . الدهان أن ابن فضلان كان قد شرب الخمر ، لكن تُقُوِّلَ ياقوت في هذا الموضع عن ابن فضلان هي : «فشرب وشربنا قدحاً» وهو ما يلمِّح إلى أن الأمر كان يتعلَّق بخمر .

فشرب قدحاً ، ثمَّ قام قائماً ، فقال : هذا سروري بمولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه . وقام الملوكُ الأربعةُ وأولادُه لقيامِه ، وقُمنا نحن أيضاً ، حتى إذا فعل ذلك ثلاثَ مرّاتٍ ثم انصرفنا من عنده .

وقد كان يخطب له على منبرِه قبل قدومي : اللهم وأصلح الملك يلطوار ملك بلغار ، فقلت أنا له : إن الله هو الملكُ ولا يُسمَّى على المنبر بهذا الاسم غيرُه جلَّ وعزَّ ، وهذا مولاك أميرُ المؤمنين قد رضي لنفسه أن يُقال على منابره في الشرق والغرب : اللهم أصلح عبدَك وخليفتَك جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين(240)

---

(240) ها هنا النصُّ الذي ينقُله ياقوت الحموي في (معجم البلدان) عن ابن فضلان : « فلما كنا من ملك الصقالبة وهو الذي قصدنا له على مسيرة يومٍ وليلةٍ وجه لاستقبالنا الملوكَ الأربعةَ الذين تحت يده وإخوتَه وأولادَه فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاورس وساروا معنا ، فلما صرنا منه على فرسخين تلقَّانا هو بنفسه فلما رآنا نزل فخرَّ ساجداً شكراً لله (جلَّ وعزَّ : غير موجودة لدى ياقوت) وكان في كُمِّه دراهمُ فنثرها علينا ونصب لنا قباباً فنزلناها . وكان وصولُنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة عشر وثلاثمئة وكانت (فكانت : في نصنا) المسافة من الجرجانية وهي مدينة خوارزم (إلى بلده : في نصنا) سبعين يوماً ، فأقمنا إلى يوم الأربعاء (في نصنا العبارة هي : يوم الأحد ويوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء) في القباب التي ضربت لنا حتى اجتمع ملوكُ أرضِه وخواصُّه (في نصنا : جمع الملوك والقواد وأهل بلده) ليسمعوا قراءة الكتاب . فلما كان يوم الخميس (واجتمعوا : موجودة في نصنا) نشرنا المطردين اللذين كانوا معنا (في نصنا : كانا معنا) وأسرجنا الدابة بالسرج الموجه إليه وألبسناه السواد وعمَّمناه وأخرجتُ كتاب الخليفة ، فقرأته وهو قائم على قدميه ثم قرأت كتاب الوزير حامد بن العباس وهو قائمٌ أيضاً وكان بدينا(الجملة الأخيرة غير موجودة في نصِّنا ، وهناك اختصار وتقديم وتأخير) ، فنثر أصحابُه علينا (عليه : في نصِّنا) الدراهم (الكثيرة : محذوفة في نصِّ ياقوت) و(ثم : في نصِّنا) أخرجنا (أخرجت : في نصِّنا) الهدايا (في نصِّنا : من الطيب والثياب واللؤلؤ له ولامرأتِه) وعرضناها عليه (في نصِّنا : فلم أزل أعرض عليه وعليها شيئاً شيئاً حتى فرغنا من ذلك) ثم خلعنا (خلعت : في نصِّنا) على امرأتِه (بحضرة الناس : في نصِّنا) وكانت جالسةً إلى جانبِه (في نصِّنا : جنبه) وهذه سنتهم ودأبهم (في نصِّنا : وزيهم) ثم وجه إلينا فحضرنا قبته وعنده الملوك عن يمينه ، وأمرنا أن نجلس عن يساره وأولاده جلوس بين يديه ، وهو==

وكـذا من كـان قـبلُه من آبائهِ الخلفـاء وقـد قـال النبي صلى الله عليـه وسلم : «لا

== وحده على سريرٍ مغشّى بالديباج الرومي (في نصّنا : فلمّا كان بعد ساعة وجه إلينا فدخلنا إليه وهو في قبّته والملوك عن يمينه ، وأمرنا أن نجلس عن يسارهِ وإذا أولادُه جلوسٌ بين يديه وهو وحده على سرير مغشى بالديباج الرومي ، فلمّا خلعت عليها نثر النساء عليها الدراهم وانصرفنا) ، فدعا بالمائدة فقدمت إليه (إليه : غير موجودة في نصّنا) وعليها (وعليه : في نصنا) لحم مشوي (في نصنا : اللحم المشوي وحده) فابتدأ الملك (هو : في نصنا) وأخذ (فأخذ : في نصنا) سكيناً وقطع لقمةً وأكلها وثانيةً وثالثةً ثم قطع (احتزَّ : في نصنا) قطعة فدفعها (دفعها : في نصنا) إلى سوسن الرسول فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجعلت بين يديه ، وكذلك رسمهم (الرسم : في نصنا) لا يمد أحد يده إلى أكل (الأكل : في نصنا) حتى يناوله الملك (لقمة : موجودة في نصنا) فإذا (فساعة : في نصنا) تناولها (يتناولها : في نصنا) جاءته (قد جاءته : في نصنا) مائدة ثم قطع قطعة وناولها (ناولني فجاءتني مائدة ثم قطع قطعة : في نصنا) وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة ، ثم ناول الملك الثاني فجاءته مائدة وكذلك حتى قدم إلى كل واحد من الذين بين يديه مائدة وأكل كل واحد منا (ثم ناول الملك الرابع فجاءته مائدة ، ثم ناول أولاده فجاءتهم الموائد وأكلنا كل واحد : في نصنا) من مائدته لا يشاركه (لا يشركه : في نصنا) فيها أحد ولا يتناول من مائدة غيره شيئا فإذا فرغ من الأكل (الطعام : في نصنا) حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته إلى منزله ، فلمّا فرغنا (أكلنا : في نصنا) دعا بشراب العسل وهم يسمونه السجو (ليومه وليلته : في نصنا فحسب) فشرب وشربنا (أما في نصنا فالعبارة هي : قدحاً ثم قام قائماً فقال : هذا سروري بمولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، وقام الملوك الأربعة وأولاده لقيامه ، وقمنا نحن أيضاً حتى إذا فعل ذلك ثلاث مرات ثم انصرفنا من عنده) . وقد كان يخطب له قبل قدومنا (على منبره قبل قدومي : في نصنا) : اللهم أصلح (وأصلح : في نصنا) الملك بلطوار (يلطوار : في نصنا) ملك بلغار فقلت (أنا : موجودة في نصنا) له : إن الله هو الملك ولا يجوز أن يخطب (يُسمى : في نصنا) بهذا أحد (على المنبر بهذا الاسم غيره جلَّ وعزَّ : في نصنا) سيّما على المنابر (غير موجودة في نصنا) وهذا مولاك أمير المؤمنين (رضي : في نصنا) قد (وقد : في نصنا) رضي لنفسه أن يُقال على منابره في الشرق والغرب : اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين (وكذا من كان قبله من آبائه الخلفاء وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله» : موجودة في نصنا فحسب) فقال (فقال لي : في نصنا) : كيف==

تطروني[241] كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنَّما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله « . فقال لي : فكيف يجوز أن يُخطب لي؟ قلت : باسمك واسم أبيك . قال : إن أبي كان كافراً ولا أحبُّ أنْ أذكر اسمه على المنبر وأنا أيضاً فما أحب أن يُذكر اسمي إذ كان الذي سمَّاني به كافراً ، ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين؟ فقلت : جعفر . قال : فيجوز أن أتسمَّى باسمِه؟ قلت : نعم قال : قد جعلتُ اسمي جعفراً واسمَ أبي عبد الله ، فتقدَّمْ إلى الخطيبِ بذلك . ففعلتُ .

فكان يخطب له : اللهم وأصلح عبدك جعفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين .

ولمَّا كان بعد قراءةِ الكتابِ وإيصالِ الهدايا بثلاثة أيام بعث إليَّ ، وقد كان بلغه أمرُ الأربعةِ آلاف دينار وما كان من حيلةِ النصرانيِّ في تأخيرها ، وكان خبرُها في الكتابِ . فلمَّا دخلتُ إليه أمرني بالجلوسِ ، فجلستُ ورمى إليَّ كتابَ أميرِ المؤمنينَ ، فقال : من جاءَ بهذا الكتابِ؟ قلتُ : أنا . ثم رمى إليَّ كتابَ الوزيرِ ، فقال : وهذا أيضا؟ قلتُ : أنا . قال : فالمالُ الذي ذكر فيهما ما فعل به؟ قلت : تعذَّر جمعُه وضاقَ الوقتُ وخشينا فَوْتَ الدُّخولِ فتركناه ليلحق بنا . فقال : إنَّما جئتم بأجمعِكم وأنفق عليكم مولاي ما أنفق لحملِ هذا المالِ إليَّ حتَّى أبني به حصناً يمنعُني من اليهودِ الذين قد استعبدوني ، فأمَّا الهديةُ فغلامي قد كان يُحْسَن أن يَجِيءَ بها . قلتُ : هو

== (فكيف : في نصنا) يجوز أن يُقال (يخطب لي : في نصنا)؟ فقلت : (قلت : في نصنا) يذكر اسمك (باسمك : في نصنا) واسم أبيك . فقال (قال : في نصنا) : إن أبي كان كافراً وأنا أيضا (غير موجودة في نصنا) ما (ولا : في نصنا) أحب أن يُذكر اسمي إذا كان الذي سمَّاني به كافراً(في نصنا العبارة هي : أذكر اسمه على المنبر وأنا أيضاً فما أحب أن يذكر اسمي إذ كان الذي سمَّاني به كافراً) ، ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين؟ فقلت : جعفر . قال : فيجوز أن أتسمى باسمه؟ قلت : نعم . قال : قد جعلت اسمي جعفراً واسم أبي عبد الله وتقدم (فتقدم :في نصنا) إلى الخطيب بذلك (ففعلت : في نصنا) ، فكان يخطب له : اللهم أصلح (وأصلح : في نصنا) عبدك جعفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين» .

(241) لا تطروني ، لا تمدحوني ، من الإطراء .

كذلك ، إلا أنّا قد اجتهدنا . فقال للتَّرْجُمَان : قلْ له أنا لا أعرفُ هؤلاءِ إنّما أعرفُك أنت ، وذلك أنّ هؤلاءِ قومٌ عجمٌ ولو عَلِمَ الأستاذ[242]- أيّده الله- أنّهم يبلغون ما تبلغ ما بعث بك حتّى تحفظ عليَّ وتقرأ كتابي وتسمع جوابي ولستُ أطالب غيرَك بدرهم ، فاخرج من المال[243] فهو أصلحُ لك . فانصرفتُ من بين يديه مذعوراً مغموماً ، وكانَ رجلاً له منظرٌ وهيبةٌ ، بدينٌ ، عريضٌ كأنّما يتكلّم من خابية[244] . فخرجتُ من عنده ، وجمعتُ أصحابي ، وعرَّفْتُهم ما جرى بيني وبينه ، وقلت لهم : من هذا حذِرتُ .

وكان مؤذنه يثني الإقامة[245] إذا أذَّن فقلتُ له : إن مولاك أمير المؤمنين يفردُ في داره الإقامة . فقال للمؤذن : اقبلْ ما يقوله لك ولا تخالفه . فأقام المؤذّنُ على ذلك أياماً ، وهو يسألني عن المال ويناظرني فيه ، وأنا أويسه[246] منه ، وأحتجُّ فيه . فلما يئس منه تقدَّم إلى المؤذّن أن يثني الإقامة ، ففعل . وأراد بذلك أن يجعله طريقاً إلى مناظرتي[247] . فلما سمعتُ تثنيته للإقامة ، نهيتُه وصحتُ عليه . فعرف الملك فأحضرني وأحضر أصحابي فلمّا اجتمعنا قال التَّرْجُمَان : قلْ له (يعنيني . .) ما يقول في مؤذّنين أفرد أحدُهما وثنّى الآخر ، ثم صلّى كلٌّ واحد منهما بقوم أتجوز الصلاةُ أم لا؟ قلتُ : الصلاةُ جائزةٌ فقال : باختلافٍ أم بإجماع قلتُ : بإجماع قَال : قُلْ له فما يقولُ في رجلٍ دفع إلى قوم مالاً لأقوام ضعفى محاصَرين مستعبدينً فخانوه؟ فقلتُ : هذا لا يجوز وهؤلاء قومُ سوءٍ . قال : باختلافٍ أم بإجماع؟ قلتُ : بإجماع . فقال للتَّرْجُمَان : قُلْ له : تعلم أنَّ الخليفةَ- أطال الله بقاءه- لو بعثَ إليَّ جيشاً كانَ يقدر عليَّ؟ قلتُ : لا . قال : فأميرُ خراسانَ؟ قلتُ : لا . قال : أليس لبُعْدِ المسافةِ وكثرةِ مَنْ

---

(242) يقصد بالأستاذ الخليفة المقتدر .

(243) فاخرجْ من المال : أي اقضِ الدَّيْنَ واخرجْ المال .

(244) الخابية : وعاء الماء الذي يُحفظ به .

(245) الإقامة للصلاة : النداء لها . ، وثنى لها أي نادى مرتين .

(246) أويسه : أيسه وآيسه إيئاسا : جعله يقنط .

(247) مناظرتي : مجادلتي .

بيننا من قبائلِ الكفّار؟ قلتُ : بلى . قال : قُلْ له فوالله إنّي لبمكاني البعيدِ الذي تراني فيه وإنّي لخائفٌ من مولاي أميرِ المؤمنين ، وذلك أنّي أخافُ أن يبلغه عني شيء يكرهه ، فيدعو عليَّ فأهلك بمكاني وهو في مملكته وبيني وبينه البلدان الشاسعة ، وأنتم تأكلون خبزه وتلبسون ثيابه وترونه في كلِّ وقت خنتموه في مقدار رسالة بعثكم بها إليَّ ، إلى قوم ضعفى ، وخنتم المسلمين ، لا أقبل منكم أمرَ ديني حتى يجيئني من ينصح لي فيما يقول فإذا جاءني إنسان بهذه الصورة قبلتُ منه . فألْجَمَنا[248] وما أحرنا جواباً وانصرفنا من عنده .

قال[249] :

فكان بعد هذا القول يؤثرني ويقرِّبني ويُباعِد أصحابي ، ويسمِّيني أبا بكر الصديق .

ورأيتُ في بلدِه من العجائبِ ما لا أحصيها كثرةً ، من ذلك : أنَّ أوَّلَ ليلةٍ بتناها في بلدِه ، رأيتُ قبل مغيبِ الشَّمْسِ بساعة قياسية[250] أفقَ السماء ، وقد احمرَّت احمراراً شديداً ، وسمعتُ في الجو أصواتاً شديدةً وهمهمة[251] عالية ، فرفعتُ رأسي ، فإذا غيمٌ أحمرُ مثلُ النَّارِ قريبٌ مني ، وإذا تلك الهَمْهَمَةُ والأصواتُ منه ، وإذا فيه أمثالُ النَّاسِ والدَّوابِّ ، وإذا في أيدي الأشباحِ التي فيه تشبه النَّاسَ رماحٌ وسيوفٌ أتبيَّنُها وأتخيَّلُها ، وإذا قطعةٌ أخرى مثلُها أرى فيها أيضاً رجالاً ودواب وسلاحاً ، فأقبلتْ هذه القطعةُ تحمل على هذه كما تحمل الكتيبة[252] على الكتيبة ، ففزعنا من ذلك ، وأقبلنا على التضرُّعِ والدعاءِ ، وهم يضحكون منا ويتعجَّبون من فعلِنا .

قال : وكنَّا ننظر إلى القطعةِ تُحْمَلُ على القطعةِ ، فتختلطان جميعاً ساعةً ثم تفترقان ، فما زال الأمرُ كذلك ساعةً من اللَّيل ثمَّ غابتا ، فسألْنا الملكَ عن ذلك فزعم

---

(248) ألجَمَنا : أسْكتَنا .

(249) قال أي ابن فضلان .

(250) ساعة قياسية : لعلَّها الساعة بالتَّمام والكمال .

(251) همهمة : كلُّ صوتٍ معه بَحَحٌ ، والهمهمة كذلك أصواتٌ كأصواتِ البقرِ والفِيَلَةِ وأشباهِ ذلك .

(252) الكتيبة : الجيش ، والفرقة العظيمة من الجيش .

أنَّ أجدادَه كانوا يقولون : إنَّ هؤلاء من مؤمني الجنِّ وكفارِهم وهم يقتتلون في كل عشيَّةٍ وإنَّهم ما عدموا[253] هذا مُذْ كانوا في كلِّ ليلة[254] .

قال :

ودخلتُ أنا وخيَّاطٌ كان للملك من أهلِ بغدادَ- قد وقع إلى تلك الناحية- قبَّتي لنتحدَّث ، فتحدَّثنا بمقدارِ ما يقرأ إنسانٌ أقلَّ من نصفِ سبعٍ ونحن ننتظر أذانَ العتمة، فإذا بالأذانِ فخرجنا من القُبَّةِ وقد طلع الفجرُ فقلتُ للمؤذِّنِ :أي شيء أذَّنت؟ قال : أذانَ الفجرِ قلتُ : فالعشاء الآخرة؟ قال : نصلِّيها مع المغربِ قلتُ : فاللَّيل؟ قال : كما ترى وقد كان أقصرَ من هذا إلا أنَّه قد أخذ في الطولِ ، وذكر أنه منذ شهر ما نام خوفا أن تفوته صلاةُ الغداةِ ، وذلك أنَّ الإنسانَ يجعل القِدْرَ على النَّارِ وقتَ المغربِ ثم

---

(253) ماعدموا : ما انفكوا .

(254) النصُّ الذي ينقلُه ياقوت في (معجم البلدان) عن ابن فضلان في هذا الموقع هو التالي : « ورأيت في بلدِه من العجائب ما لا أُحصيها كثرةً من ذلك : أن أول ليلة بتناها في بلدِه رأيتُ قبلَ مغيب الشَّمْسِ بساعةٍ (قياسية : في نصنا فحسب) أفقَ السَّمَاءِ وقد احمرَّ (احمرَّت : في نصنا) احمراراً شديداً ، وسمعتُ في الجو أصواتاً عالية (شديدة : في نصنا) وهمهمةً (عالية : صفة موجودة في نصنا وحسب) ، فرفعتُ رأسي فإذا غيمٌ أحمرُ مثلُ النارِ قريبٌ منِّي ، فإذا (وإذا : في نصنا) تلك الهمهمةُ والأصواتُ منه ، وإذا فيه أمثالُ النَّاسِ والدَّوَابِّ ، وإذا في أيدي الأشباحِ التي فيه قِسِيٌّ ورماحٌ وسيوفٌ (تشبه الناس رماح وسيوف : في نصنا) وأتبيَّنُها (أتبيَّنُها : في نصنا) وأتخيَّلُها ، وإذا قطعةٌ أخرى مثلُها أرى فيها (أيضاً : في نصنا لوحده) رجالاً أيضاً (هنا مكانُها لدى ياقوت) (ودواب : محذوفة لدى ياقوت) وسلاحاً فأقبلت هذه القطعة (تحمل : في نصنا فحسب) على هذه كما تحمل الكتيبةُ على الكتيبةِ ففزعنا من هذه (ذلك : في نصنا) وأقبلنا على التضرُّع والدعاءِ وأهلُ البلد (وهم : في نصنا) يضحكون منا ويتعجَّبون من فعلِنا . قال : وكنَّا ننظرُ إلى القِطْعَةِ تُحمل على القطعةِ فتختلطانِ جميعاً ساعةً ثم تفترقان ، فما زال الأمرُ كذلك إلى قطعةٍ من اللَّيْلِ (ساعة من الليل : في نصنا) ، ثم غابتا فسألنا الملكَ عن ذلك فزعم أنَّ أجدادَه كانوا يقولون : (إنَّ : في نصنا فحسب) هؤلاء من مؤمني الجنِّ وكفارهم وهم يقتتلون (في : في نصنا) كل عشية وأنهم ما عدموا هذا منذ (مذ : في نصنا) كانوا في كلِّ ليلة» .

يصلّي الغداةَ وما آن لها أن تنضج .

قال :

ورأيت النَّهـارَ عندهم طويلاً جـداً ، وإذا أنَّه يطولُ عندهم مـدةً من السَّنَةِ ويقـصُر اللَّيل ثم يطولُ الليل ويقصر النهار ، فلمَّا كانت اللَّيلةُ الثانيةُ جلستُ خارجَ القبَّةِ ، وراقبتُ السَّمَاءَ ، فلمْ أرَ من الكواكبِ إلا عدداً يسيراً ظننتُ أنَّه نحو الخمسةَ عشر كوكباً متفرِّقة ، وإذا الشفقُ الأحمرُ الذي قبلَ المغربِ لا يغيبُ بتةً ، وإذا اللَّيلُ قليلُ الظُّلْمَةِ يعرفُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فيه من أكثرِ من غلوةِ سهمٍ[255] .

قال :

ورأيتُ القمرَ لا يتوسَّطُ السَّمَاءَ بلْ يطلُع في أرجائِها ساعةً ثمَّ يطلُع الفجرُ فيغيبُ القمر . وحدَّثني الملكُ أنَّ وراءَ بلدِه بمسيرةِ ثلاثةِ أشهرٍ قوم يُقال لهم ويسو[256] ، اللَّيْلِ عندهم أقلُّ من ساعةٍ .

قال :

ورأيتُ البلدَ عند طلوعِ الشَّمْسِ يحمرُّ كلُّ شيءٍ فيه من الأرضِ والجبالِ وكُلِّ شيءٍ ينظرُ الإنسانُ إليه حين تطلُع الشَّمْسُ كأنَّها غمامةٌ كبرى ، فلا تزالُ الحمرةُ كذلك حتَّى تتكبَّد السماءَ . وعرَّفني أهلُ البلدِ أنَّه إذا كان الشتاءُ عاد اللَّيْلُ في طولِ النَّهَارِ وعاد النَّهَارُ في قِصَرِ اللَّيْلِ حتَّى إنَّ الرجلَ منَّا ليخرُجُ إلى موضع يُقال له إتل[257] - بيننا وبينه أقلُّ من مسيرةِ فرسخٍ - وقتَ طلوعِ الفجرِ فلا يبلُغه إلىَّ العتمةِ إلى

---

(255) غلوة سهم : الغاية ، وهي رميةُ سهمٍ أبعدَ ما يُقْدَرُ عليه ، ويُقال هي قَدْرُ ثلاثمائةِ ذراعٍ إلى أربعمائةٍ ، جمعُها غلَوات وغِلاء .

(256) ويسو : يرى المستشرق فرمان (دهان ص126) أن ويسو Wisu هي روسيا البيضاء Biclo Russeوأنها قرب موسكو ، غربي ورنك .

(257) إتل : لعلها ، حسب الدكتور غيبة مدينة فولغوغراد Bolgograd اليوم ، لأن إتل تدل على مدينة بهذا الاسم المعرب ، كما تدل على نهر الفولغا كما سلف .

وقتِ طلوعِ الكواكبِ كلِّها حتّى تُطْبِقَ السماءُ[258] . فما برحنا من البلدِ حتّى امتدَّ اللَّيلُ وقصرَ النهارُ .

ورأيتهم يتبرَّكون بعواءِ الكلابِ جداً ويفرحون به ويقولون : سنةُ خصبٍ وبَرَكَةٍ وسلامة .

ورأيتُ الحيَّاتِ عندهم كثيرةً حتّى إنَّ الغصن من الشجرةِ لتلتفُّ عليه العشرةُ منها والأكثرُ ولا يقتلونها ولا تؤذيهم ، حتى لقد رأيتُ في بعضِ المواضع شجرةً طويلةً يكون طولُها أكثرَ من مئة ذراع ، وقد سقطتْ وإذا بدنُها عظيمٌ جداً فوقفتُ أنظر إليه إذْ تحرَّك فراعني ذلك وتأمَّلتُه فإذا عليه حيَّةٌ قريبةٌ منه في الغلظ والطول فلمَّا رأتني سقطتْ عنه وغابتْ بين الشجرِ فجئتُ فزعاً فحدَّثتُ الملكَ ومن كان في مجلسِه فلم يكترثوا لذلك وقال : لا تجزعْ فليس تؤذيك . ونزلنا مع الملكِ منزلاً ، فدخلت أنا وأصحابي تكين وسوسن وبارس ومعنا رجل من أصحابِ الملك بين الشجر ، فرأينا عوداً صغيراً أخضرَ كَرِقَّةِ المِغْزَلِ وأطولَ ، فيه عِرْقٌ أخضرُ ، على رأسِ العرق ورقةٌ عريضةٌ مبسوطةٌ على الأرضِ مفروشٌ عليها مثلُ النَّابتِ فيها حبٌ ، ولا يشكُّ مَنْ يأكلُه أنّه رُمَّانٌ أمليسي[259] فأكلنا منه فإذا به من اللَّذَّةِ أمرٌ عظيمٌ فما زلنا نتبعه ونأكلُه .

ورأيتُ لهم تفاحاً أخضرَ شديدَ الخضرةِ وأشدَّ حموضةً من خلِّ الخمرِ وتأكله

---

(258) هنا ما يقول الإصطخري عن هذا النهر : « وأما نهر إتل فإنه بلغني يخرج من قرب خِرْخيز ، فيجري فيما بين الكيْماكيّة والغزيّة ، وهو الحد بين الكيماكيّة والغزيّة ، ثم يذهب غرباً على ظهر بلغار ، ويعود راجعاً إلى ما يلي المشرق حتى يجوز على الروس ، ثم يمرُّ على بلغار ثم على بُرْطَاس حتى يقع في بحر الخزر ، ويقال إنه يتشعب من هذا النهر نيف وسبعون نهراً ، ويبقى عمود النهر يجري على الخزر حتى يقع في البحر ، ويُقال إن هذه المياه إذا كانت مجموعةً في نهر واحد أعلاه يزيد على جيحون ، ويبلغ من كثرة هذه المياه وغزارتها أنها تنتهي إلى البحر ، فتجري في البحر داخلاً مسيرة يومين ، وتغلب على ماء البحر حتى يجمد في الشتاء لعذوبته وحلاوته ، ويبين في البحر لونه من لون البحر» .

(259) رمان أمليسي وأمليس : رمان حلو طيب ، لا عجم فيه أي لا نواة له .

الجواري فيسمنَّ عليه . ولم أرَ في بلدهم أكثرَ من شجرِ البندق[260] لقد رأيتُ منه غياضاً تكون الغيضةُ[261] أربعين فرسخاً في مثلِها ، ورأيتُ لهم شجراً لا أدري ما هو ، مفرطَ الطُّوْلِ وساقه أجرد من الورقِ ، ورؤوسه كرؤوسِ النخلِ له خُوْصٌ[262] دقاقٌ إلا أنَّه مجتمعٌ يجيئون إلى موضع يعرفونه من ساقه فيثقبونه ويجعلون تحتَه إناءً فتجري إليه من ذلك الثَّقْبِ ماء أطيبُ من العسلِ إنْ أكثرَ الإنسانُ منه أسكره كما يُسكر الخمر[263] .

وأكثر أكلِهم الجاورسُ ولحمُ الدَّابةِ على أنَّ الحِنْطَةَ والشعيرَ كثيرٌ وكلُّ من زرعَ شيئاً أخذه لنفسه ليس للملكِ فيه حقٌ غيرَ أنهم يؤدون إليه في كلِّ سنةٍ من كلِّ بيت جلدَ سمّور[264] . وإذا أمَرَ سرِّية بالغارةِ على بعضِ البلدانِ فغنمتْ كان له معهُم حصةٌ . ولا بدَّ لكلٍّ من يعترس[265] أو يدعو دعوةً من زَلة[266] للملك على قدر الوليمةِ و(ساخرخ)[267] من نبيذِ العسلِ وحنطةِ ردية[268] ، لأنَّ أرضَهُم سوداءٌ منتنةٌ .

وليس لهم مواضعُ يجمعون فيها طعامَهم ، ولكنَّهم يحفرون في الأرضِ آباراً

---

(260) البندق : جنس من الفصيلة البتولية ، منه نوع يُزرع لثمره ، وأنواعٌ تُزرع في الأحراج ، أو تزرع للتزيين .

(261) الغيضة : الأَجَمَةُ ومجتمع الأشجار في مغيض الماء . ج غياض .

(262) خوص : ورق النخيل والمُقْل والنارجيل وما شاكلها .

(263) لعلّه يقصد ، كما يذهب د . دهان ، قصب السُّكَر . وأستبعدُ ذلك لأنَّ قصبَ السكر ينمو في المناطق الحارّة وهو ليس حال المنطقة التي يصفها ابن فضلان . ويظن د . حيدر غيبة أن الأمر يتعلّق بنوع من أنواع توت الأرض (غيبة ص66) ، وهو تصور أقرب إلى المعقول .

(264) سمُّور : حيوانٌ بريٌّ يشبه السنور ، يُتخذ جلدُه فراءً ثمينة للينها وحسنها . ج سمامير .

(265) يعترس : أظنها من تعرَّس لامرأته أي تحبَّب لها . ولعل يعترس بمعنى يتزوج : من العرس .

(266) الزلة : الصنيعة ، والعرس والوليمة وما تحمله من مائدة صديقك أو قريبك .

(267) ساخرخ : يُعتقد أنه مقياس للسوائل (أنظر الدهان ص 130) .

(268) ردية : رديئة .

ويجعلون الطَّعَامَ فيها ، فليس يمضي عليه إلا أيامٌ يسيرةٌ حتى يتغيَّر ويريح[269] ، فلا يُنتفع به ، وليس لهم زيتٌ ولا شيرج[270] ولا دهنٌ بتةً وإنَّما يقيمون مقامَ هذه الأدهانِ دُهْنَ السَّمَكِ ، فكلُّ شيءٍ يستعملونه فيه يكون زفراً ، ويعملون من الشعير حساءً يحسونه الجواري والغلمان وربَّما طبخوا الشعيرَ باللَّحْم ، فأكلَ الموالي اللَّحْمَ ، وأطعموا الجواري الشعيرَ ، إلا أنْ يكونَ رأسَ تيس[271] فيُطْعَم مَن اللَّحْم .

وكلُّهم يلبسون القلانس[272] ، فإذا رَكِبَ الملكُ رَكِبَ وحده بغيرِ غلام ولا أحد يكون معه ، فإذا اجتاز في السوقِ لم يبقَ أحدٌ إلا قامَ وأخذَ قلنسوتَه عن رأسِهِ فجعلها تحت إبطِه ، فإذا جاوزهم ردُّوا قلانسهم إلى رؤوسهم ، وكذلك كلُّ من يدخل إلى الملكِ من صغيرٍ وكبيرٍ حتَّى أولادُه وإخوتُه ساعةَ ينظرون إليه قد أخذوا قلانسهم فجعلوها تحت آباطهم ثمَّ أوموا إليه برؤوسهم وجلسوا ، ثم قاموا حتى يأمرهم بالجلوسِ وكلُّ من يجلس بين يديه فإنَّما يجلسُ باركاً ولا يُخرج قلنسوتَه ولا يُظهرها حتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك .

وكلُّهم في قبابٍ إلا أنَّ قُبَّةَ الملكِ كبيرةٌ جداً تسعُ ألفَ نفسٍ وأكثرَ مفروشةٌ بالفَرْشِ الأرمني[273] وله في وسطها سريرٌ مغشًّى بالديباج الرومي .

ومن رسومِهم أنَّه إذا وُلِدَ لابنِ الرجلِ مولودٌ ، أخذه جدُّه دونَ أبيه وقال : أنا أحقُّ به من أبيه في حَضْنِهِ حتَّى يصير رجلاً . وإذا ماتَ منهم الرجلُ ورثه أخوه دون ولدِه . فعرَّفتُ الملكَ أنَّ هذا غيرُ جائزٍ وعرَّفته كيف المواريثُ حتى فهمَها .

---

(269) ويريح : أصابته الرائحة ، أي الرائحة المنتنة .

(270) الشيرج : هو دهن السمسم .

(271) رأس تيس : اختلف شارحو ومحققو ابن فضلان بشأن هذا التعبير ، لكنني أرى أن العبارة هي تعبير ساخر عن الرؤساء وعلية القوم حيث يصفهم هو نفسه في مكان آخر من الرحلة قائلاً : «والترك كلهم ينتفون لحاهم إلا أسبلتهم ، وربما رأيتُ الشيخَ الهَرِمَ منهم وقد نتف لحيتَه وترك شيئاً منها تحت ذقنه وعليه ، البوستين ، فإذا رآه إنسانٌ من بعد لم يشك أنه تيس» .

(272) القلانس : جمع قَلَنْسُوَةٍ وهي لباسُ الرأس .

(273) الفرش الأرمني : مشهور وكذلك البساط الأرمنية .

وما رأيت أكثرَ من الصواعقِ في بلدهم وإذا وقعتْ الصاعقةُ على بيتٍ لم يقربوه ويتركونه على حالته وجميعَ من فيه من رجلٍ ومالٍ وغيرِ ذلك حتى يُتْلِفَهُ الزَّمَانُ ويقولون : هذا بيتُ مغضوبٍ عليهِم .

وإذا قتل الرَّجُلُ منهم الرجلَ عمداً أقادوه[274] به وإذا قتله خطأً صنعوا له صندوقاً من خشب الخدنك[275] وجعلوه في جوفِه وسمَّروه عليه وجعلوا معه ثلاثةَ أرغفةٍ وكوزَ ماءٍ ، ونصبوا له ثلاثَ خشباتٍ مثل الشبائح[276] وعلَّقوه بينها وقالوا : نجعله بين السماءِ والأرضِ يصيبُه المطرُ والشمسُ لعلَّ الله أن يرحمه . فلا يزال معلَّقاً حتى يُبليه الزمانُ وتهبُّ به الرِّيَاحُ .

وإذا رأوا إنساناً له حركةٌ ومعرفةٌ بالأشياء قالوا : هذا حقُّه أن يخدمَ ربَّنا فأخذوه وجعلوا في عنقِه حبلاً وعلَّقوه في شجرةٍ حتى يتقطَّع .

ولقد حدَّثني ترجمانُ الملكِ أن سندياً[277] سقط[278] إلى ذلك البلدِ ، فأقام عند الملكِ برهةً من الزمانِ يخدمُه وكان خفيفاً فهماً ، فأرادَ جماعةٌ منهم الخروجَ في تجارةٍ لهم ، فاستأذن السنديُّ الملكَ في الخروجِ معهم فنهاه عن ذلك ، وألحَّ عليه حتَّى أذنَ له ، فخرج معهم في سفينةٍ فرأوه حَرِكاً[279] كيِّساً[280] ، فتآمروا بينهم وقالوا : هذا يصلحُ لخدمةِ ربِّنا فنُوجِّهُ به إليه . واجتازوا في طريقهم بغَيْضَةٍ ، فأخرجوه إليها وجعلوا في عنقِه حبلاً وشدّوه في رأسِ شجرةٍ عاليةٍ وتركوه ومضوا .

وإذا كانوا يسيرون في طريقٍ فأراد أحدُهم البولَ فبالَ وعليهِ سلاحُه ، انتهبوه

---

(274) أقادوه : أي قتله قوداً ، والقود هو القصاص .

(275) خشب الخدنك : الحور الأبيض أو البتولا .

(276) الشبائح : هي عيدان معروضة في القنب .

(277) سندي : رجل من بلاد السند .

(278) سقط أي وصل بطريقة ما إلى البلد .

(279) حَرِك : كثير النشاط والفاعلية .

(280) كيِّس : جواد ظريف ذو عقل .

وأخذوا سلاحَه وثيابَه وجميعَ ما معه . وهذا رسمٌ لهم ، ومن حطّ[281] عنه سلاحَه وجعله ناحيةً وبال ، لم يعرضوا له .

وينزل الرجالُ والنساءُ إلى النهرِ فيغتسلون جميعاً عُرَاةً لا يستترُ بعضهُم من بعضٍ ، ولا يزنون بوجهٍ ولا سببٍ . ومن زنى منهم كائناً من كان ضربوا له أربعَ سككٍ وشدُّوا يديهِ ورجليه إليها وقطعوا بالفأس من رقبتِه إلى فخذيه وكذلك يفعلون بالمرأةِ أيضاً ، ثم يعلّق كل قطعة منه ومنها على شجرة وما زلت اجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك[282] ويقتلون السارق كما يقتلون الزاني[283] وفي غياضهم عسلٌ كثيرٌ في مساكن النحل يعرفونها فيخرجون لطلب

---

(281) حط سلاحَه : نزع سلاحه .

(282) فما استوى لي ذلك : فما نجحتُ في ذلك .

(283) سيلخص ياقوت الحموي الفقرات الطويلة السابقة في (معجم البلدان) بالطريقة التالية : «قال : ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد (قد وقع إلى تلك الناحية : محذوفة لدى ياقوت) قبتي لنتحدث فتحدثنا بمقدار ما يقرأ الإنسان نصف ساعة (إنسان أقل من نصف سبع : في نصنا) ونحن ننتظر أذان العشاء (العتمة : في نصنا) ، فإذا بالأذان فخرجنا من القبة وقد طلع الفجر فقلت للمؤذن :أي شيء أذنت؟ قال : الفجر (أذان الفجر : في نصنا) . قلت : فعشاء الأخيرة (فالعشاء الآخرة : في نصنا)؟ قال : نصليها مع المغرب . قلت : فالليل؟ قال : كما ترى وقد كان أقصر من هذا وقد أخذ الآن (إلا أنه قد أخذ : في نصنا) في الطول وذكر أنه منذ شهر ما نام خوفا أن تفوته صلاة الغداة ، وذلك أن الإنسان يجعل القدر على النار وقت المغرب ثم يصلي الغداة وما آن لها أن تنضج .

قال : ورأيت النهار عندهم طويلاً جداً وإذا أنه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل ثم يطول الليل ويقصر النهار ، فلما كانت الليلة الثانية جلست (خارج القبة وراقبت السماء : في نصنا لوحده) فلم أر من الكواكب إلا عدداً يسيراً ظننت أنها (أنه : في نصنا) فوق (نحو : في نصنا) الخمسة عشر كوكباً متفرقة ، وإذا الشفق الأحمر الذي قبل المغرب لا يغيب البتة (بتةً : في نصنا) ، وإذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه من أكثر من غلوة سهم . قال : والقمر (ورأيت القمر : في نصنا) إنما يطلع (لا يتوسط السماء بل يطلع : في نصنا) في أرجاء السماء (أرجائها : في نصنا) ساعة ثم يطلع الفجر فيغيب القمر . وحدثني الملك أن وراءَ بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوم يقال لهم ويسو ، الليل==

== عندهم أقل من ساعة . قال : ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمره كل شيء فيه من الأرض والجبال وكل شيء ينظر الإنسان إليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء . وعرفني أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار وعاد النهار في قصر الليل ، حتى إن الرجل منا ليخرج إلى نهر (موضع : في نصنا) يقال له إتل بيننا وبينه أقل من مسافة (مسيرة : في نصنا) فرسخ وقت طلوع الفجر فلا يبلغه إلى العتمة إلى وقت طلوع الكواكب كلها ، حتى تطبق السماء (فما برحنا من البلد حتى امتد الليل وقصر النهار : عبارة في نصنا) . ورأيتهم يتبركون بعواء الكلاب جداً (ويفرحون به : في نصنا فحسب) ويقولون : تأتي عليهم (غير موجودة في نصنا) سنة خصب وبركة وسلامة . ورأيت الحيات عندهم كثيرة حتى إن الغصن من الشجرة ليلتف (لتلتف : في نصنا) عليه عشرة (العشرة : في نصنا) منها وأكثر (والأكثر : في نصنا) ولا يقتلونها ولا تؤذيهم ، (العبارة التالية غير موجودة كلها لدى ياقوت : حتى لقد رأيت في بعض المواضع شجرة طويلة يكون طولها أكثر من مئة ذراع وقد سقطت وإذا بدنها عظيم جداً فوقفت أنظر إليه إذ تحرك فراعني ذلك وتأملته فإذا عليه حية قريبة منه في الغلظ والطول ، فلما رأتني سقطت عنه وغابت بين الشجر فجئت فزعاً فحدثت الملك ومن كان في مجلسه فلم يكترثوا لذلك وقال : لا تجزع فليس تؤذيك ونزلنا مع الملك منزلاً فدخلت أنا وأصحابي تكين وسوسن وبارس ومعنا رجل من أصحاب الملك بين الشجر ، فرأينا عوداً صغيراً أخضر كرقة المغزل وأطول فيه عرق أخضر على رأس العرق ورقة عريضة مبسوطة عى الأرض مفروش عليها مثل النابت فيها حب ، ولا يشك من يأكله أنه رمان أمليسي فأكلنا منه فإذا به من اللذة أمر عظيم فما زلنا نتبعه ونأكله) . ولهم (ورأيت لهم : في نصنا) تفاحاً أخضر شديد الحموضة جداً (الخضرة : في نصنا) (وأشد حموضةً من خل الخمر : العبارة محذوفة في نص ياقوت) تأكله (وتأكله : في نصنا) الجواري فيسمن (عليه : في نصنا فحسب) وليس في بلدهم (ولم أر في بلدهم : في نصنا) أكثر من شجر البندق ورأيت (لقد رأيت : في نصنا) منه غياضاً تكون (الغيضة : محذوفة لدى ياقوت) أربعين فرسخاً في مثلها . قال (أي ابن فضلان كما يريد ياقوت التوكيد) : ورأيت لهم شجراً لا أدري ما هو ، مفرط الطول وساقه أجرد من الورق ورؤوسه كرؤوس النخل له خوص دقاق إلا أنه مجتمع يعمدون (يجيئون : في نصنا) إلى موضع من ساق هذه الشجر(موجودة لدى ياقوت فحسب) يعرفونه (من ساقه :في نصنا==

== فحسب) فيثقبونه ويجعلون تحته إناء يجري (فتجري : في نصنا) إليه من ذلك الثقب ماء أطيب من العسل وإن (إن : في نصنا بدون واو) أكثر الإنسان من (منه : في نصنا) شربه أسكره كما تسكر (يسكر : في نصنا) الخمر . وأكثر أكلهم الجاورس ولحم الخيل (الدابة : في نصنا) على أن الحنطة والشعير كثير في بلادهم (الأخيرة غير موجودة في نصنا) ، وكل من زرع شيئاً أخذه لنفسه ليس للملك فيه حق غير أنهم يؤدون إليه من كل بيت جلد ثور (في كل سنة من كل بيت جلد سمور : في نصنا) وإذا أمر سرية على بعض البلدان بالغارة (على بعض البلدان : تقديم وتأخير مقارنةً بنصنا) كان له معهم حصة (غير موجودة في نصنا وبدلها : فغنمت كان له معهم حصة) . (الفقرة التالية محذوفة لدى ياقوت : ولا بد لكل من يعترس أو يدعو دعوة من زله للملك على قدر الوليمة وساخرخ من نبيذ العسل وحنطة ردية لأن أرضهم سوداء منتنة . وليس لهم مواضع يجمعون فيها طعامهم ولكنهم يحفرون في الأرض آباراً ويجعلون الطعام فيها فليس يمضي عليه إلا أيام يسيرة حتى يتغير ويريح فلا ينتفع به) وليس عندهم (لهم : في نصنا) شيء من الأدهان غير دهن السمك (العبارة التالية غير موجودة كلها لدى ياقوت : زيت ولا شيرج ولا دهن بتةً) فإنهم (وإنما : في نصنا) يقيمونه (يقيمون : في نصنا) مقام الزيت والشيرج (غير موجودين في نصنا ، مثلما التالي : هذه الأدهان دهن السمك) فهم كانوا لذلك زفيرين (وفي نصنا : فكل شيء يستعملونه فيه يكون زفراً) . (وعبارة ابن فضلان التالية غير موجودة لدى ياقوت : ويعملون من الشعير حساء يحسونه الجواري والغلمان وربما طبخوا الشعير باللحم فأكل الموالي اللحم وأطعموا الجواري الشعير إلا أن يكون رأس تيس فيطعم من اللحم» . وكلهم (كلهم : في نصنا) يلبسون القلانس فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام ولا أحد يكون معه فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه وجعلها (فجعلها : في نصنا) تحت إبطه ، فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم فوق (إلى : في نصنا) رؤوسهم ، وكذلك كل من يدخل على (إلى : في نصنا) الملك من صغير وكبير حتى أولاده لإخوته (وإخوته : في نصنا) يقع نظرهم عليه (ساعة ينظرون إليه : في نصنا) يأخذون (قد أخذوا : في نصنا) قلانسهم فيجعلونها (فجعلوها : في نصنا) تحت آباطهم ، ثم يومئون (أوموا : في نصنا) إليه برؤوسهم ويجلسون (وجلسوا : في نصنا) ، ثم يقومون (قاموا : في نصنا) حتى يأمرهم بالجلوس وكل من جلس (يجلس : في نصنا) بين يديه فإنما يجلس باركاً ولا يخرج قلنسوته ولا يظهرها حتى يخرج من بين يديه فيلبسها ==

ذلك فربّما وقع عليهم قوم من أعدائهم فقتلوهم ، وفيهم تجارٌ كثيرٌ يخرجون إلى أرض الترك فيجلبون الغنم ، وإلى[284] بلد يُقال له ويسو فيجلبون السمُّور والثعلب الأسود .

== عند ذلك . (العبارة التالية محذوفة كلها لدى ياقوت : كلهم في قباب إلا أن قبة الملك كبيرة جداً تسع ألف نفس وأكثر مفروشة بالفرش الأرمني وله في وسطها سرير مغشّى بالديباج الرومي . ومن رسومهم أنه إذا ولد لابن الرجل مولود أخذه جده دون أبيه وقال : أنا أحق به من أبيه في حضنه حتى يصير رجلاً وإذا مات منهم الرجل ورثه أخوه دون ولده فعرفت الملك أن هذا غير جائز وعرفته كيف المواريث حتى فهمها) . والصواعق في بلادهم كثيرة جداً (ما رأيت أكثر من الصواعق في بلدهم : في نصنا) ، وإذا وقعت الصاعقة على بيت لم يقربوه ويتركونه (على حالته وجميع من فيه من رجل ومال وغير ذلك : في نصنا فحسب) حتى يتلفه الزمان ويقولون : هذا موضع (بيت : في نصنا) مغضوب عليه (عليهم : في نصنا) . (العبارة التالية محذوفة لدى ياقوت : وإذا قتل الرجل منهم الرجل عمداً أقادوه به وإذا قتله خطأً صنعوا له صندوقاً من خشب الخدنك وجعلوه في جوفه وسمروه عليه وجعلوا معه ثلاثة أرغفة وكوز ماء ونصبوا له ثلاث خشبات مثل الشبائح وعلقوه بينها وقالوا : نجعله بين السماء والأرض يصيبه المطر والشمس لعل الله أن يرحمه فلا يزال معلقا حتى يبليه الزمان وتهب به الرياح) . وإذا رأوا رجلاً (إنساناً : في نصنا) له حركة ومعرفة بالأشياء قالوا : هذا حقه أن يخدم ربنا فأخذوه وجعلوا في عنقه حبلاً وعلقوه في شجرة حتى يتقطع . (ثمة حكاية محذوفة لدى ياقوت : حكاية السندي . . .) . وإذا كانوا يسيرون في طريق فأراد أحدهم البول فبال وعليه سلاحه انتهبوه وأخذوا سلاحه (وثيابه : في نصنا فحسب) وجميع ما معه وهذا رسم لهم ومن حط (خط : في نصنا) عنه سلاحه وجعله ناحية (وبال : في نصنا) لم يعرضوا له وهذه سنتهم (غير موجودة في نصنا) . وينزل الرجال والنساء النهر (إلى النهر : في نصنا) فيغتسلون جميعاً عراةً لا يستتر بعضهم من بعض ، ولا يزنون بوجهٍ ولا سبب ومن زنى منهم كائناً من كان ضربوا له أربع سكك وشدوا يديه ورجليه إليها وقطعوا بالفأس من رقبته إلى فخذيه ، وكذلك يفعلون بالمرأة (أيضاً : في نصنا) ثم يعلق كل قطعة منه ومنها على شجرة . قال (يتكلم ياقوت على لسان ابن فضلان) : ولقد اجتهدت (وما زلت اجتهد : في نصنا) أن تستتر (يستتر : في نصنا) النساء من الرجال في السباحة فما استوى إليّ (لي في نصنا) ذلك ويقتلون السارق كما يقتلون الزاني» .

(284) ثمة كلمة مقدَّرة قبل (إلى) هي يخرجون .

ورأينا فيهم أهلَ بيت[285] يكونون خمسةَ الآف نفسٍ من امرأةٍ ورجلٍ قد أسلموا كلُّهم يُعرفون بالبرنجار[286] وقد بنوا لهم مسجداً من خشب يصون فيه ولا يعرفون القراءة ، فعلَّمتُ جماعة ما يصلون به .

ولقد أسلم على يدي رجلٌ يُقال له طالوت فأسميته عبد الله فقال : أريد أن تسمِّيني باسمِك محمداً ، ففعلت وأسلمتِ امرأتُه وأمُّه وأولادُه ، فسموا كلهم محمداً ، وعلمته «الحمد لله» و «قل هو الله أحد» ، فكان فرحه بهاتين السورتين أكثرَ من فرحِه إنْ صار ملكَ الصقالبة[287] .

وكنَّا لما وافينا الملك ، وجدناه نازلاً على ماء يقال له خلجة[288] وهي ثلاثُ بحيرات منها اثنتان كبيرتان وواحدةٌ صغيرةٌ إلا أنَّه ليس في جميعِها شيءٌ يُلْحَق غوره[289] . وبين هذا الموضع وبين نهرٍ لهم عظيمٌ يصبُّ إلى بلادِ الخزرِ يُقال له نهرُ إتل[290] نحو الفرسخ ، وعلى هذا النهرِ موضعُ سوقٍ تقوم في كل مُديدة[291] ، ويُباع فيها المتاعُ الكثيرُ النفيسُ .

---

(285) أهل بيت : أي أهل عشيرة أو قبيلة .

(286) البرنجار : يعتقد د . دهان أن ابن فضلان ربما يقصد بذلك (المونغول) .

(287) والعبارة تعني : أكثر من فرحه كما لو كان قد صار ملك الصقالبة .

(288) خلجة : يعتقد د . دهان أنها ربما تكون «خلخية» المذكورة في أكثر من معجم بلداني عربي قديم .

(289) الغور : كلُّ منخفضٍ من الأرض ، والغور من كل شيء عمقُه ، وماء غور : غائر .

(290) نهر إتل : مشروح آنفاً .

(291) مُديدة :تصغير مدة .

وكان تكين حدَّثني (292) أنَّ في بلدِ الملك رجلاً عظيمَ الخلق جداً ، فلمَّا صرتُ

---

(292) في استشهاد ياقوت الحموي بابن فضلان تحت مادة (إتل) في (معجم البلدان) ترد القصة نفسها كالتالي بالاختلافات التالية المؤشر إليها في أماكنها : «قرأت في كتاب أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد رسول المقتدر إلى بلاد الصقالبة وهو أهل بلغار ، بلغني أن فيها رجلاً عظيم الخلق جداً فلمَّا سرت إلى الملك سألته عنه ، فقال : نعم قد كان في بلادنا ومات ، ولم يكن من أهل البلاد ، ولا من الناس أيضاً ، وكان من خبره أن قوماً من التجار خرجوا إلى نهر إتل وهو نهر بيننا وبينه يوم واحد كانوا (كما : في نصنا) يخرجون وكان (كان : مضافة في نص ياقوت) هذا النهر قد مد وطغى ماؤه ، فلم أشعر (يوماً : موجودة في نصنا) إلا وقد وافاني جماعة من التجار (كانوا يخرجون إليه : موجودة في نصنا) ، فقالوا : أيها الملك قد طفا (قفا : في نصنا) على الماء رجل إن كان من أمة تقرب منا فلا مقام لنا في هذه الديار وليس لنا غير التحويل . فركبت معهم حتى صرت إلى النهر ، (ووقفت عليه ، لدى ياقوت) فإذا أنا بالرجل (برجل لدى ياقوت) طوله (موجودة لدى ياقوت) (بذراعي محذوفة لدى ياقوت) اثنا عشر ذراعاً وإذا رأسه (له رأس : في نصنا) كأكبر ما يكون من القدور وأنف أكبر (أكثر : في نصنا) من شبر وعينان عظيمتان وأصابعه (وأصابع : في نصنا) تكون أكثر من شبر فراعني أمره ، وداخلني ما داخل القوم من الفزع ، وأقبلنا نكلمه وهو لا يتكلم (وهو لا يكلمنا : في نصنا) ولا يزيد على النظر إلينا (بل ينظر إلينا : في نصنا) ، فحملته إلى مكاني وكتبت إلى أهل ويسو وهم منا على ثلاثة أشهر أسألهم عنه ، فعرفوني (فكتبوا : في نصنا) أن (إلي يعرفونني أن : في نصنا) هذا الرجل من يأجوج ومأجوج ، وهم منا على ثلاثة أشهر (عراة موجودة في نصنا) يحول بيننا وبينهم البحر (لأنهم على شطِّه ، غير موجودة في نص ياقوت) وإنهم (وهم : في نصنا) قوم (غير موجودة في نصنا) كالبهائم (مثل البهائم : في نصنا) الهاملة عراةً حفاةً (عراة حفاة غير موجودة في نصنا) ينكح بعضهم بعضاً يخرج الله عز وجل لهم كل يوم سمكة من البحر ، فيجيء الواحد منهم بمدية (ومعه المدية : في نصنا) فيجز منها بقدر (قدر : في نصنا) كفايته (ما يكفيه : في نصنا) وكفاية (ويكفي : في نصنا) عياله ، فإن أخذ فوق ما يقنعه اشتكى بطنه هو (وكذلك : في نصنا) وعياله (يشتكون بطونهم موجودة في نصنا فحسب) وربما مات وماتوا بأسرهم فإذا أخذوا منها حاجتهم انقلبت وعادت (ووقعت : في نصنا) إلى (في : في نصنا) البحر ، وهم (فهم : في نصنا) (في كل يوم : في نصنا فحسب) على ذلك . وبيننا وبينهم البحر وجبال ==

إلى البلد ، سألتُ الملكَ عنه ، فقال : نعم قد كان في بلدِنا وماتَ ولم يكنْ من أهل البلدِ ولا من الناس أيضاً ، وكان من خبرِه أن قوماً من التُّجَارِ خرجوا إلى نهرِ إتل ، وهو نهر بيننا وبينه يوم واحد كما يخرجون ، وهذا النهر قد مد وطغى ماؤه فلم أشعر يوماً إلا وقد وافاني جماعةٌ من التجارِ فقالوا : أيها الملكُ ، قد قفا[293] على الماءِ رجلٌ إنْ كان من أمةٍ تقربُ منَّا فلا مقام لنا في هذه الديارِ ، وليس لنا غيرُ التحويل[294] . فركبتُ معهم حتَّى صرتُ إلى النهرِ فإذا أنا بالرجلِ وإذا هو بذراعي اثنا عشر ذراعاً وإذا له رأسٌ كأكبرِ ما يكون من القدورِ وأنفٌ أكثرَ من شبرٍ وعينان عظيمتان وأصابعُ تكون أكثرَ من شبر شبر ، فراعني أمرُه وداخلني ما داخلَ القومَ من الفزعِ وأقبلنا نكلِّمه ولا يكلِّمنا بل ينظرُ إلينا[295] ، فحملتُه إلى مكاني وكتبتُ إلى أهلِ ويسو وهم منا على ثلاثةِ أشهرٍ أسألُهم عنه فكتبوا إليَّ يعرِّفونني أنَّ هذا الرجلَ من يأجوج

= محيطة (من جانب : في نصنا) وجبال (والجبال : في نصنا) محيطة (بهم : في نصنا) (من جوانب أخر والسد أيضاً قد حال بينهم وبين الباب الذي كانوا يخرجون منه : موجودة فحسب في نصنا) ، فإذا أراد الله (عز وجل : في نصنا) إخراجهم (أن يخرجهم : في نصنا) (إلى العمارات سبب لهم فتح السد : في نصنا) انقطع السمك عنهم (غير موجودة في نصنا البتة) ونضب البحر (وانقطع عنهم السمك : غير موجودة في نصنا) . وانفتح السد (غير موجودة في نصنا) الذي بيننا وبينهم . ثم قال الملك (عبارةٌ ليست موجودة في نصنا) : أقام عندي (مدة ثم علقت به علة في نحره فمات بها ، وخرجت فرأيت عظامه فكانت هائلة جداً . قال المؤلف رحمه الله تعالى : هذا وأمثاله هو الذي قدمتُ البراءة منه ولم أضمن صحته ، وقصة ابن فضلان وإنفاذ المقتدر له.إلى بلغار مدونة معروفة مشهورة بأيدي الناس ، رأيت منها عدة نسخ . . .» .

(293) قفا : هكذا في مخطوطة مشهد ، ويعتقد د . دهان أنها طفا .

(294) التحويل : التحوُّل والانتقال من المكان لمكان آخر .

(295) يظن الدكتور حيدر غيبة أن الأمر ربما كان يتعلق بتمثال عظيم من الحجر . وهو ما تعززه عبارة ابن فضلان اللاحقة : «فحملته إلى مكاني» كأنه حملَ شيئاً وليس إنساناً .

ومأجوج[296] وهم منا على ثلاثة أشهر عراةً ، يَحُول[297] بيننا وبينهُم البحرُ لأنَّهم على شطِّه ، وهم مثلُ البهائم ينكحُ بعضُهم بعضاً يُخرجُ الله عزَّ وجلَّ لهم كلَّ يوم سمكةً من البحرِ فيجيء الواحدُ منهم ومعه المدية[298] فيجزُّ منها قدرَ ما يكفيه ويكفي عياله ، فإنْ أخذ فوقَ ما يقنعه اشتكى بطنُه وكذلك عيالُه يشتكون بطونَهم وربَّما ماتَ وماتوا بأسْرِهم ، فإذا أخذوا منها حاجَتهم انقلبتْ ووقعتْ في البحرِ ، فهم في كلِّ يوم على ذلك .

وبيننا وبينهم البحرُ من جانبٍ والجبالُ محيطةٌ بهم من جوانبَ أُخَرٍ والسدُّ أيضاً قد حال بينهم وبين البابِ الذي كانوا يخرجون منه فإذا أرادَ الله عزَّ وجلَّ أن يخرجهم إلى العماراتِ سبَّبَ لهم فتحَ السدِّ ونضبَ البحرُ وانقطع عنهم السَّمك .

قال : فسألته عن الرجلِ فقال : أقام عندي مدةً فلم يكنْ ينظر إليه صبيٌّ إلا مات ولا حاملٌ إلا طرحتْ حملها ، وكان إنْ تمكَّن من إنسانٍ عصره بيديه حتى يقتله . فلمَّا رأيتُ ذلك علَّقته في شجرةٍ عاليةٍ حتى مات ، إنْ أردتَ أنْ تنظرَ إلى عظامه ورأسِه مضيتُ معك حتى تنظر إليها . فقلتُ : أنا والله أحبُّ ذاك . فركب معي إلى غيضة كبيرةٍ فيها شجرُ عظام فتقدَّمني إلى شجرةٍ سقطتْ عظامُه ورأسُه تحتها فرأيتُ رأسَه مثلَ القفيرِ[299] الكبيرِ وإذا أضلاعُه أكبرُ من عراجينِ النخلِ[300] وكذلك عظامُ ساقيه وذراعيه فتعجَّبتُ منه ، وانصرفتُ .

قال :

---

(296) يأجوج ومأجوج : كثر الحديث عن قوم يأجوج ومأجوج وسدِّهم في التراث العربي . ويقول غيبة إنهم قوم من الأقوام المتوحشة التي كانت على ما يبدو تقيم في شمال البلاد الروسية قرب شواطئ البحر الأبيض والقناة المسماة بهذا الاسم والواصلة بين بحيرة أونيغا Onega وبين البحر .

(297) يَحُول : يفصل .

(298) المدية : السكين .

(299) القفير : خلية النحل .

(300) عراجين النخل : العرجون ما يحمل التمر ، أي العذق ، وهو من النخل كالعنقود في العنب .

وارتحل الملكُ من الماءِ الذي يُسمى خلجةً إلى نهر يُقال له جاوشيز[301] فأقام به شهرين ، ثمَّ أراد الرحيلَ فبعث إلى قوم يُقال لهم «سواز»[302] يأمرهم بالرحيل معه فأبوا عليه وافترقوا فرقتين : فرقةٌ مع ختَنه وكان قد تملّك عليهم واسمه «ويرغ»[303] فبعث إليهم الملك وقال : إن الله عزَّ وجلَّ قد منَّ عليَّ بالإسلام وبدولةِ أمير المؤمنين ، فأنا عبده وهذه الأمة قد قلدتني فمن خالفني لقيته بالسيف وكانت الفرقة الأخرى مع ملك من قبيلة يعرف بملك اسكل[304] وكان في طاعته إلا أنه لم يكن داخلاً في الإسلام . فلما وجّه إليهم هذه الرسالة خافوا ناحيته فرحلوا بأجمعهم معه إلى نهر جاوشيز ، وهو نهر قليل العرض يكون عرضه خمسة أذرع وماؤه إلى السرة وفيه مواضع إلى الترقوة[305] وأكثره قامة وحوله شجر كثير من الشجر الخدنك[306] وغيره ، وبالقرب منه صحراء واسعة يذكرون أن بها حيواناً دون الجمل في الكبر وفوق الثور رأسه رأس جمل وذنبه ذنب ثور وبدنه بدن بغل وحوافره مثل أظلاف الثور ، له في وسط رأسه قرن واحد غليظ مستدير كلما ارتفع دق حتى يصير مثل سنان الرمح ، فمنه ما يكون طوله خمسة أذرع إلى ثلاثة أذرع إلى أكثر وأقل يرتعي[307] ورق الشجر جيد الخضرة إذا رأى الفارس قصده ، فإن كان تحته جواد أمن منه بجهد وإن لحقه أخذه من ظهر دابته بقرنه ثم زجّ[308] به في الهواء واستقبله بقرنه فلا يزال كذلك حتى يقتله .

---

(301) لم يجر التعرف عليه ، ولعله فرع من نهر الكاما . لكن ابن فضلان يقول لنا فوراً : «وهو نهر قليل العرض يكون عرضه خمس أذرع وماؤه إلى السرة وفيه مواضع إلى الترقوة» .

(302) سواز : ويرى بعض المستشرقين أنها ربما تكون «سوار» (دهان 140) .

(303) ويرغ : لم يهتد إليه الدهان ، ولا غيره ، ومر عليها د . غيبة مروراً دون شرح .

(304) ملك اسكل : لا نعرف شيئاً عن هذا الملك .

(305) الترقوة : العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق .

(306) الخدنك : مشروحة آنفاً .

(307) يرتعي : يرعى ويأكل من ورق الشجر .

(308) زج : أي قذف به في الهواء .

ولا يعرض للدابة بوجه ولا سبب وهم يطلبونه في الصحراء والغياض حتى يقتلوه ، وذلك أنهم يصعدون الشجر العالية التي يكون بينها ، ويجتمع لذلك عدة من الرماة بالسهام المسمومة فإذا توسطهم رموه حتى يثخنوه ويقتلوه .

ولقد رأيت عند الملك ثلاث طيفوريات[309] كبار تشبه الجزع اليماني[310] عرفني أنها معمولة من أصل قرن هذا الحيوان ، وذكر بعض أهل البلد أنه الكركدن[311] .

قال : وما رأيت منهم إنساناً يحمر بل أكثرهم معلول وربما يموت أكثرهم بالقولنج[312] حتى إنه ليكون بالطفل الرضيع منهم ، وإذا مات المسلم عندهم أو زوج المرأة الخوارزمية غسلوه غسل المسلمين ، ثم حملوه على عجلة تجرّه وبين يديه مطرد[313] حتى يصيروا به إلى المكان الذي يدفنونه فيه ، فإذا صار إليه أخذوه عن العجلة وجعلوه على الأرض ، ثم خطوا حوله خطاً ونحوه ثم حفروا داخل ذلك الخط قبره وجعلوا له لحداً ودفنوه ، وكذلك يفعلون بموتاهم .

ولا تبكي النساء على الميت ، بل الرجال منهم يبكون عليه يجيئون في اليوم الذي مات فيقفون على باب قبته فيضجون بأقبح بكاء يكون وأوحشه .

هؤلاء للأحرار فإذا انقضى بكاؤهم وافى العبيد ومعهم جلود مضفورة[314] فلا يزالون يبكون ويضربون جنوبهم وما ظهر من أبدانهم بتلك السيور حتى تصير في أجسادهم مثل ضرب السوط ، ولا بد من أن ينصبوا بباب قبته مطرداً ويحضروا سلاحه فيجعلونها حول قبره ، ولا يقطعون البكاء سنتين .

فإذا انقضت السنتان حطُّوا المطرد وأخذوا من شعورهم ، ودعا أقرباء الميت دعوة

---

(309) طيفورية ج طيفوريات : صحن أو طبق عميق .

(310) الجزع اليماني : هو بالفتح فالسكون ، الخرز الذي فيه سواد وبياض تشبه به الأعين ، الواحدة جزعة ، مثل تمرتمرة(مجمع البحرين 4 : 311) .

(311) الكركدن : هو وحيد القرن .

(312) القولنج : مرض معوي منسوب إلى المعي ، مؤلم جداً ، يعسر معه خروج الثفل والريح .

(313) مطرد : مشروح آنفاً .

(314) جلود مضفورة : أي سيور من الجلد .

يعرف بها خرجهم من الحزن ، وإن كانت له زوجة تزوجت هذا إذا كان من الرؤساء فأما العامة فيفعلون بعض هذا بموتاهم .

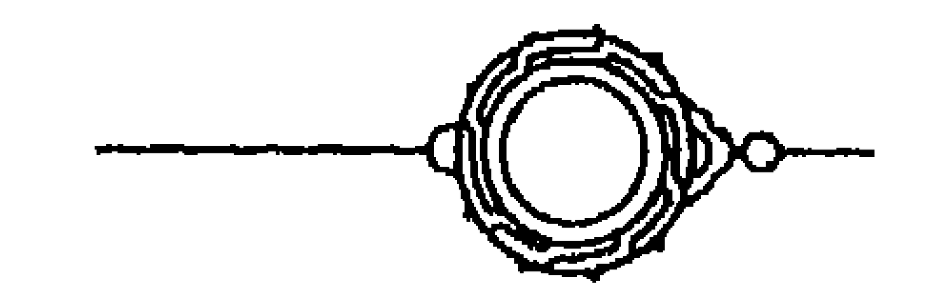
وعلى ملك الصقالبة ضريبة يؤديها إلى ملك الخزر من كل بيت في مملكته جلد سمور ، وإذا قدمت السفينة من بلد الخزر إلى بلد الصقالبة ركب الملك فأحصى ما فيها ، وأخذ من جميع العُشْر(315) وإذا قدم الروس أو غيرهم من سائر الأجناس برقيق(316) فللملك أن يختار من كل عشرة أرؤس رأساً .

وابن ملك الصقالبة رهينة عند ملك الخزر ، وقد كان اتصل بملك الخزر عن ابنة ملك الصقالبة جمالٌ ، فوجَّه يخطبها فاحتجَّ عليه وردَّه فبعث وأخذها غصباً وهو يهودي وهي مسلمة فماتت عنده ، فوجه يطلب بنتاً له أخرى فساعة اتصل ذلك بملك الصقالبة بادر فزوجها لملك اسكل وهو من تحت يده خيفة أن يغتصبه إياها كما فعل بأختها ، وإنما دعا ملك الصقالبة أن يكاتب السلطان ويسأله أن يبني له حصناً خوفاً من ملك الخزر .

قال : وسألته يوماً فقلت له : مملكتك واسعة وأموالك جمَّة وخراجك كثير فلِمَ سألتَ السلطان أن يبني حصناً بمال من عنده لا مقدار له؟ فقال : رأيتُ دولة الإسلام مقبلةً وأموالهم يؤخذ من حلها فالتمستُ ذلك لهذه العلَّة ، ولو أني أردت أن أبني حصناً من أموالي من فضة أو ذهب لما تعذر ذلك عليَّ ، وإنما تبرَّكْتُ بمالِ أميرِ المؤمنين فسألتُه ذلك .

(315) العُشْر : ضريبة ، وقد كانوا يأخذون العُشر من البضائع .

(316) الرقيق : هم العبيد للبيع .



قال : ورأيتُ الروسيَّةَ وقد وافوا في تجارتِهم ونزلوا على نهر

(317) «وصل الإسلام إلى روسيا بواسطة التجار المسلمين العرب انطلاقاً من منطقة القفقاس ، ووصل إلى موسكو من الشمال لا من الجنوب كما يتصور البعض ، حيث إن بعض المصادر يؤرخ لدخول الإسلام إلى موسكو بأنه كان من الجنوب ، باعتباره الطريق الأيسر والأسهل لحركة التجار ، والسبب في ذلك هو أن قبائل القوزاق الروسية المدرَّبة على الغارات والحروب ، قد وقفت سداً منيعاً في وجه انتشار الدعوة الإسلامية والمدِّ الإسلامي الزاحف باتجاه قلب روسيا ، مما اضطرَّ التُّجار المسلمين والدعاة إلى عبور سهوب آسيا الوسطى باتجاه سيبيريا ، بمساعدة التتار الذين اعتنقوا الإسلام واهتدوا إلى الدين الحقِّ منذ القرن التاسع الميلادي في مملكتهم مملكة بلغار الفولغا الأوسط ، التي هي اليوم إقليمهم وموطنهم . وكانت هذه لمنطقة في معظمها قد اعتنقت الإسلام في القرن العاشر ، ثم انتشر الإسلام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر في روسيا في منطقة الأورال ، التي تشكِّل جمهورية بشكيريا اليوم . وبفضل التجَّار المسلمين من عرب وإيرانيين وأتراك انتشر الإسلام إلى بقية أجزاء الأراضي الروسية . فالمسلمون اليوم يضربون طوقاً بشرياً حول روسيا من سيبيريا في الشمال والشمال الشرقي إلى الجنوب . وصل الإسلام إلى موسكو سنة 1200 م تقريباً ، وكانت عاصمة مُلك المسلمين مدينة قازان آنذاك ، فكانت موسكو تدفع الضرائب إلى قازان بصفتها هذه . وبقيت قازان عاصمة المسلمين حتى سنة 1552 م ، عندما تمكن القيصر الروسي إيفان الرهيب من احتلالها وتدميرها ، فأحرق مساجدها ، ونقل قبابها الرائعة إلى كرملين موسكو ، وإلى الساحة الحمراء حيث لا تزال موجودة إلى يومنا هذا ، ثم احتل مدينة أستراخان عام 1556 م ، وسيبيريا الغربية عام 1598م ، ووصل في نهاية القرن السادس عشر إلى المناطق الإسلامية في كبارديا وبلاد الشيشان . وبعد هذا التاريخ بدأ الروس حربهم على المسلمين ، فمنعوهم من ممارسة الشعائر الدينية ، وفرضوا عليهم التزام العادات والتقاليد الروسية ، وساموهم أشد أنواع العذاب ، فصادروا الممتلكات ، وأدخلوا تشريعات عقابية مختلفة لإرغام السكان المحليين على نبذ الدين الإسلامي ، لكنهم لم يحققوا نجاحاً كبيراً في مسعاهم هذا ، فظلَّ أغلب المسلمين متمسكين بدينهم ، ولم يوقف البطش الروسي انتشار الإسلام ، فكان ذلك مفارقة غريبة ، بل كان العكس ، فقد حقق الإسلام تقدماً جديداً في ==

إتـــل ، فلـــم أرَ أتمّ أبدانـــاً منهـــم كـــأنّهـــم النَّخْـــلُ شـقـــرٌ حـمـــرٌ لا يلبســـون

== المنتصف الثاني من القرن الثامن عشر ، أيام حكم القيصرة الروسية كاترين الثانية ، حيث تغيرت السياسة الروسية تجاه المسلمين الذين يعيشون داخل حدودها مرة أخرى ، وأصبحت تتسم بشيء من الحرية ، فبدأت عام 1764 م بانتهاج سياسة التسامح الديني إلى حد كبير ، ورفعت عام 1767 م حظر سكنى التتريين لعاصمتهم قازان ، وخطت الإمبراطورة مرحلة جديدة عام 1773 م فمنحت تتر الفولغا حريتهم الدينية ، وحقهم ببناء الجوامع والمدارس القرآنية ، وأصبح تجار الفولغا وسطاء ممتازين بين روسيا القيصرية وآسيا الوسطى . وكانوا يتصرفون أيضاً دعاة ومبلغين ، ويحملون عقيدتهم إلى الشعوب التي مازالت شبه وثنية في بشكيريا وسيبيريا الغربية . إن سياسة القيصرة الروسية هذه لم تكن حباً للمسلمين بالدرجة الأولى ، بل كانت هذه السياسة تصب في مصلحة روسيا لمدِّ نفوذها وبسط سيطرتها على المناطق المجاورة ؛وذلك لأنها أدركت إمكانية الاستعانة بالشعب المسلم السجين داخل روسيا ؛كي يبدو امتداد ووجود الروس في آسيا الوسطى مقبولاً بل مرغوباً به ، مما دعا الحكام الروس لأن ينتبهوا إلى القوة السياسية المحتملة للمسلمين الذين كانوا يعيشون في روسيا القيصرية آنذاك ، فراحوا يسعون لكسب تأييدهم ، فأنشئت دار للإفتاء في اورنبورغ (انتقلت فيما بعد إلى أوفا) في سنة 1788 م ، وبعد ذلك أنشئت ثلاث دور أخرى للإفتاء في غضون القرن التالي ، إحداها في عام 1831 م والاثنتان الأخريان في عام 1872 م . وكانت تلك المؤسسات شبيهة (بمؤسسات العلماء) التي كانت موجودة لدى العثمانيين ، وكان لها سلطات فيما يختص ببعض جوانب القانون المدني ، كما كانت تضطلع بمسؤولية إعداد رجال الدين ، وصيانة الأوقاف ، ونشر المطبوعات الدينية التي لم يسمح بنشرها قبل عام 1800 م . وبعد مضي خمسة أعوام ، أي في سنة 1806 م وحدها ، طبع ما يقارب 26000 كتاب ، بما في ذلك 1500 نسخة من المصحف الشريف ، وقد زاد حجم هذه المطبوعات عندما سُمح بتشغيل آلات الطباعة الخاصة بالمسلمين ابتداء من منتصف ذلك القرن . وكان لزاماً على العلماء ورجال الدين أن يسجلوا ويُعيَّنوا رسمياً ؛حتى يكونوا من وجهة نظر الحكومة ممثلين لواجهة الإسلام الرسمي المتعارف عليها ، والخاضعة لرقابة الإمبراطورية الروسية ، وفي مقابل ذلك كانوا يتمتعون بميزات كثيرة بما في ذلك الإعفاء من الضرائب ومن الخدمة العسكرية ، كما كان يتمتع أبناؤهم بالحقوق التي يتمتع بها أبناء النبلاء ، وفي المقابل كان هؤلاء مخلصين في ولائهم للحكومة ولو من الناحية الشكلية . هكذا كانت طبيعة الإسلام وأثره بين المسلمين في عهد القياصرة ، ==

القراطق[318] ولا الخفاتين[319] ولكن يلبس الرجلُ منهم كساءً يشتمل به على أحد شقَّيه ويُخرج إحدى يديه منه ومع كلٍّ واحدٍ منهم فأسٌ وسيفٌ وسكّينٌ لا يفارقه جميعُ ما ذكرنا .

وسيوفُهم صفائح[320] مشطَّبة[321] أفرنجية[322] ومن حَدّ ظُفْرِ الواحدِ منهُم إلى عنقه مخضر شجر وصور[323] وغير ذلك .

وكلُّ امرأةٍ منهم فعلى ثديها حقّةٌ[324] مشدودةٌ إمّا من حديد وإمّا من فضّةٍ وإمّا من نحاسٍ وإمّا من ذهبٍ على قَدْرِ مالِ زوجِها ومقدارِه ، وفي كلِّ حقّةٍ حلقةٌ فيها سكينٌ مشدودةٌ على الثديِّ أيضاً وفي أعناقهن أطواقٌ من ذهبٍ وفضة لأنَّ الرجلَ إذا مَلَكَ عشرةَ آلافِ درهم صاغَ لامرأتِه طوقاً وإن مَلَكَ عشرين ألفاً صاغَ لها طوقين وكذلك كل عشرةِ آلافٍ يزداد طوقاً لامرأتِه فربَّما كان في عنقِ الواحدةِ منهن الأطواقُ الكثيرةُ .

= حتى أُعلنت الحرية الدينية في روسيا عام 1905 م ، فكانت فرصة للإسلام لكي ينصرف فوراً إلى مرحلة انتشار جديدة ، واستمرت هذه الحالة زهاء عشرين سنة تقريباً» . بتصرف طفيف عن مقالة لعبد الكريم رؤوف .

(318) القراطق : جمع قرطق ، مشروحة في مكان آخر .

(319) الخفاتين : مشروحة في مكان آخر .

(320) صفائح : الصحيفة هي قطعةُ الحديد المسوّاة .

(321) مشطبة : الشطبة هي طريقة السيف أي الواحدة من الخطوط التي في نصله ، جمعها شطب .

(322) أفرنجية : يفرق النصُّ هنا بين أشكال السيوف العربية (أو المعروفة لدى العرب) وتلك المصنوعة بالطريقة الإفرنجية .

(323) هذه العبارة تقول لنا إن أجسامهم طُبعت عليها ، كما ينقل الدهان ، الصورُ من أخمص القدم إلى الرأس مثل اللوحة . وهذا يعني ، في تقديري ، أن أجسادهم كانت مليئة (بالوشم) ، وهو ما لم يشر إليه الدهان ولا غيرُه ، رغم أن تقاليد الوشم هذه ما زالت حاضرة بقوة في تلك المناطق حتى يومنا هذا .

(324) الحقّة : وهي وعاءٌ من الخشب المسوّى أو العاج .

وأجلُّ الحُلِيِّ عندهم الخرزُ الأخضرُ[325]، من الخزفِ[326] الذي يكون على السفنِ يبالغون فيه ويشترون الخرزةَ بدرهمٍ وينظمونه عقوداً لنسائهم .

وهم أقذرُ خلقِ الله لا يستنجُون من غائطٍ ولا بولٍ ولا يغتسلون من جنابةٍ ولا يغسلون أيديهم من الطَّعامِ ، بل هم كالحميرِ الضَّالَّةِ يجيئون من بلدِهم فيُرسون سفنَهم بإتل وهو نهرٌ كبيرٌ ويبنون على شطِّه بيوتاً كباراً من الخشب .

ويجتمع في البيتِ الواحدِ العشرةُ والعشرون والأقلُّ والأكثرُ ولكلٍّ واحدٍ سريرٌ[327]، يجلس عليه ومعهم الجواري الروقة[328] للتُّجارِ فينكحُ الواحدُ جاريتَه ورفيقُه ينظر إليه ، وربَّما اجتمعت الجماعةُ منهم على هذه الحالِ بعضُهم بحذاءِ بعضٍ ، وربَّما يدخل التاجرُ عليهم ليشتري من بعضِهِم جاريةً فيصادفُه ينكحُها فلا يزولُ عنها حتى يقضي أربه[329] .

ولا بدَّ لهم في كل يوم من غسلِ وجوهِهِم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسُه[330] ، وذلك أنَّ الجاريةَ توافي كلَّ يوم بالغداةِ ومعها قصعةٌ[331]، كبيرةٌ فيها ماءٌ فتدفعها إلى مولاها فيغسل فيها يديه ووجهَه وشعرَ رأسِهِ فيغسلُه ويسرِّحُه بالمشطِ في القصعةِ، ثم يمتخطُ ويبصقُ فيها ولا يدع شيئاً من القذرِ إلا فعلَه في ذلك الماءِ، فإذا فرغَ مما يحتاج إليه حملت الجاريةُ القصْعَةَ إلى الذي إلى جانبِه ففعلَ مثلَ فعلِ صاحبِه ، ولا تزال ترفعها من واحدٍ إلى واحدٍ حتَّى تديرها على جميعِ من في البيتِ ، وكلٌّ واحدٍ منهم يمتخطُ ويبصقُ فيها ويغسلُ وجهَه وشعرَه فيها .

وساعة توافي سفنهم إلى هذا المرسى يخرج كلٌّ واحدٍ منهم ومعه خبزٌ ولحمٌ

---

(325) الخزر الأخضر : الخرز هو ما ينظم من الجذع والودع أو من فصوص الأحجار الثمينة .

(326) الخزف : هو الصلصال يُشوى بالنار ويلَّون .

(327) السرير هنا هو المقعد والكرسي أو الديوان أو الصُفَّة .

(328) الجواري الروقة : الجواري الرائقات الحسان الجميلات .

(329) يقضي أربه : ينتهي من المضاجعة مع الجارية .

(330) الماء الطفس هو الماء المنتن القذر .

(331) قصعة : وعاء يؤكل به ويُثرد وكان يُتخذ من الخشب غالباً .

وبصلٌ ولبنٌ ونبيذٌ حتى يوافي خشبةً طويلةً منصوبةً لها وجهٌ يشبه وجهَ الإنسانِ وحولها صورٌ صغارٌ[332] وخلف تلك الصورِ خشبٌ طِوَالٌ قد نُصبت في الأرضِ فيوافي إلى الصورةِ الكبيرةِ ويسجدُ لها ثم يقول لها : يا رب قد جئتُ من بلدٍ بعيد ومعي من الجواري كذا وكذا رأساً ، ومن السمور كذا وكذا جلداً ، حتى يذكر جميعَ ما قدم معه من تجارتِه . ثم يقول : وجئتك بهذه الهديةِ ، ثم يترك الذي معه بين يدي الخشبةِ ويقول : أريدُ أن ترزقني تاجراً معه دنانيرُ ودراهمُ كثيرةٌ فيشتري مني كلَّ ما أريدُ ولا يخالفني فيما أقول ، ثم ينصرف .

فإنْ تعسَّر عليه بيعُه وطالتْ أيامُه عاد بهديةٍ ثانيةٍ وثالثة ، فإنْ تعذَّر ما يريدُ حمل إلى كلِّ صورةٍ من تلك الصورِ الصغارِ هديةً وسألها الشفاعةَ وقال : هؤلاء نساءُ ربِّنا وبناته وبنوه فلا يزال يطلب إلى صورةٍ صورةً يسألُها ويستشفع بها ويتضرَّع بين يديها فربَّما تسهَّل له البيع فباع فيقول : قد قضى ربِّي حاجتي وأحتاج أنْ أكافيه فيعمد ما أريد ولا يخالفني فيما أقول ، ثم ينصرف إلى عدَّة من الغنم أو البقر فيقتلها ويتصدَّق ببعض اللَّحم ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبةِ الكبيرةِ والصغارِ التي حولها ، ويعلِّق رؤوسَ البقرِ أو الغنم على ذلك الخشبِ المنصوبِ في الأرضِ ، فإذا كان اللَّيْلُ وافت الكلابُ فأكلتْ جميعَ ذلك فيقول : الذي فعلَه قد رضيَ ربِّي عنِّي وأكل هديَّتي .

وإذا مرض منهم الواحدُ ضربوا له خيمةً ناحيةً عنهم وطرحوه فيها وجعلوا معه شيئاً من الخبزِ والماءِ ، ولا يقربونه ولا يكلِّمونه بل لا يتعاهدونه في كل أيام مرضه لا

(332) صور صغار : يتعلق الأمر في تقديري بنوع من الإيقونات المسيحية ، وهو أمر يحتاج إلى المزيد من الدراسة والفحص . سوى أن جميع الإشارات اللاحقة في النص تحيلنا في الحقيقية إلى تقديم نذور وإلى طقوس لصيقة بالإيقونة المسيحية : «وقال : هؤلاء نساء ربنا وبناته وبنوه فلا يزال يطلب إلى صورةٍ صورةٍ يسألها ويستشفع بها ويتضرع بين يديها» .

سيَّما إن كان ضعيفاً أو مملوكاً ، فإن برئ وقام رجع إليهم وإن مات أحرقوه[333] فإن كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلابُ وجوارحُ الطير .

وإذا أصابوا سارقاً أو لصاً جاءوا به إلى شجرة غليظة وشدُّوا في عنقه حبلاً وثيقاً وعلَّقوه فيها ويبقى معلقاً حتى يتقطَّع من المكث[334] بالرياح والأمطار[335] .

وكان يُقال لي إنَّهم يفعلون برؤسائهم عند الموتِ أموراً أقلُّها الحرقُ فكنت أحب أن أقف على ذلك حتى بلغني موتُ رجلٍ منهم جليلٍ فجعلوه في قبره وسقفوا عليه

(333) لم يكن ابن فضلان الوحيد الذي أشار إلى طقوس الروس القدامى بحرق موتاهم . فالجغرافيون العرب في القرن الرابع الهجري ذكروا ذلك ، كما في قول ابن حوقل : «والروس قوم يحرقون أنفهم إذا ماتوا ويحترق مع مياسيرهم الجواري منهم بطيب أنفسهن ، كما يفعل بغانة وكوغة ونواحي بلاد الهند» ومثله المسعودي كما في (مروج الذهب) . وقد استقى ، حسب د . الدهان ، أحد الرسامين الروس (هنري سميرادسكي Henri Semiradski) من رسالة ابن فضلان لوحة الدفن الموجودة اليوم في بطرسبورغ .

(334) المكث : المكوث .

(335) النقل الثاني الذي يقوم به القزويني عن ابن فضلان في (آثار البلاد وأخبار العباد) هو عند حديثه عن بلاد خطلخ : « قال أحمد بن فضلان في رسالته : رأيت الروسية وقد وافوا بتجاراتهم على نهر آتل فلم أر أتم بدناً منهم كأنهم النخل شقر بيض لهم شريعة ولغة مخالفة لسائر الترك ، لكنهم أقذر خلق الله لا يتنظفون ولا يحترزون عن النجاسات . ومن عادة ملكهم أن يكون في قصر رفيع كبير ومعه أربعمائة رجل من خواصه أهل الثقة عنده يجلسون تحت سريره . وله سرير عظيم مرصع بالجواهر يجلس معه عليه أربعون جارية لفراشه وربما يطأ واحدة بحضور أصحابه ولا ينزل عن سريره البتة ، فإن أراد قضاء الحاجة يقرب إليه طشت ، وإن أراد الركوب تقرّب الدابة إلى جنب السرير ، وله خليفة يسوس الجيوش ويدبر أمر الرعية ويواقع الأعداء . ومن عاداتهم أن من ملك عشرة آلاف درهم اتخذ لزوجته طوقاً من ذهب ، وإن ملك ملك عشرين ألفاً اتخذ طوقين وعلى هذا فربما كان في رقبة واحدة أطواقٌ كثيرة ، وإذا وجدوا سارقاً علقوه في شجرة طويلة وتركوه حتى يتفتت» . انتهى . وهذا الكلام منقول بنصه ، ولكن باختصار ، عن ابن فضلان .

عشرةَ أيام حتى فرغوا من قطْع ثيابِه وخياطتِها .

وذلك أنَّ الرجلَ الفقيرَ منهم يعملون له سفنةً صغيرةً ويجعلونه فيها ويحرقونها ، والغنيُّ يجمعون مالَه ويجعلونه ثلاثةَ أثلاث : فثلثٌ لأهله وثلثٌ يقطعون له به ثياباً وثلثٌ ينبذون به نبيذاً يشربونه يوم تقتل جاريتُه نفسَها وتُحرق مع مولاها .

وهم مستهترون[336] بالنبيذ يشربونه ليلاً ونهاراً ، وربَّما مات الواحدُ منهم والقدحُ في يده . وإذا مات الرئيسُ منهم قال أهلُه لجواريه وغلمانِه : من منكم يموت معه فيقول بعضُهم : أنا . فإذا قال ذلك فقد وجب عليه لا يستوي له أن يرجع أبداً ، ولو أراد ذلك ما تُرِك وأكثر من يفعل هذا الجواري .

فلمَّا مات ذلك الرجلُ الذي قدَّمت ذكرَه قالوا لجواريه : من يموت معه فقالت إحداهُن : أنا ، فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث سلكتْ حتى إنَّها ربما غسلتا رجليها بأيديهما ، وأخذوا في شأنه وقطع الثياب له وإصلاح ما يحتاج إليه والجارية في كل يوم تشرب وتغني فرحةً مستبشرة .

فلمَّا كان اليومُ الذي يُحرق فيه هو والجارية حضرت إلى النهر الذي فيه سفينتُه فإذا هي قد أخرجت ، وجعل لها أربعة أركان من خشب الخدنك وغيره ، وجعل أيضاً حولها مثل الأنابير[337] الكبار من الخشب ثم مدَّتْ حتى جُعلت على ذلك الخشب ، وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهم وهو بعد في قبره لم يخرجوه ، ثم جاءوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات[338] الديباج الرومي[339] والمساند الديباج الرومي ، ثم جاءت امرأةٌ عجوزٌ يقولون لها ملك الموتِ ففرشتْ على السريرِ الفرشَ التي ذكرنا وهي ولِيَتْ خياطتَه وإصلاحَه وهي تقتل

---

(336) مستهترون : أي مواظبون على شرب النبيذ .

(337) الأنابير جمع أنبار أو أنبير ، كلمة فارسية الأصل تعني فيما تعني الجسر الذي يوضع للسفينة .

(338) المضربات : المساند .

(339) الديباج الرومي : ضرب من الثياب ، وقيل هو المنسوج من ألوان مختلفة ، فارسي معرَّب .

الجواري ورأيتها جوان بيرة[340] ضخمة مكفهرة .

فلمّا وافوا قبرَه نحّوا التراب عن الخشب ونحّوا الخشبَ واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه فرأيته قد اسودَّ لبرد البلد ، وقد كانوا جعلوا معه في قبره نبيذاً وفاكهة وطنبوراً[341] فأخرجوا جميع ذلك فإذا هو لم ينتن ولم يتغير منه شيء غيرُ لونِه .

فألبسوه سراويل[342] ورانا[343] وخفاً[344] وقرطقاً وخفتان ديباج له أزرارُ ذهب، وجعلوا على رأسه قلنسوة ديباج سمورية[345] وحملوه حتى أدخلوه القبّة التي على السفينة ، وأجلسوه على المضربة وأسندوه بالمساند وجاءوا بالنبيذ والفاكهة والريحان فجعلوه معه .

وجاءوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه ، وجاءوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة ، ثم جاءوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه ، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا ، ثم قطعوهما بالسيف وألقوا لحمهما في السفينة .

ثم جاءوا ببقرتين فقطعوهما أيضا وألقوهما فيها ، ثم أحضروا ديكاً ودجاجة فقتلوهما وطرحوهما فيها .

والجارية التي تريد أن تقتل ذاهبة وجائية تدخل قبةً قبةً من قبابهم فيجامعها

---

(340) جوان بيرة : يرى غالبية الباحثين أن الكلمة فارسية تتركب من كلمتين (جوان) و(بيره) أي شابة- عجوز ، وفي تكملة المعاجم العربية لدوزي يرسم الكلمة (جوانبيره) ويذكر أنها الساحرة أو التي تحترف صناعة السحر وهي إلاهة الموت في الميثيولوجيا . وأظن أن الكلمة يجب أن تقرأ بالمعنى الذي يقدمه دوزي ، لأسباب مقنعة في بنية نص ابن فضلان نفسه .

(341) الطنبور : قال في (القاموس) : أصله (دُنْبه برّه) ، شبّه بإلية الحَمْل وهذا التشبيه ينبئ عن كونه العود أو الطبل الصغير . ومقتضى تشكيله في (المنجد) أنه الآلة المعروفة باسم (الربابة) . على أن الأمر يتعلق بآلة تشبه العود .

(342) سراويل : هي الشلوار بالتركية (وصحّفتها العامة فقالوا الشروال) .

(343) الران : نوع من الأحذية .

(344) الخف : واحد الخفاف التي تُلبس في الرجل ، سُمّيَ كذلك لخفّته .

(345) ديباج سمورية : ديباج من فرو السَمّور .

صاحب القبة[346] ويقول لها : قولي لمولاك إنما فعلت هذا من محبتك .

فلمّا كان وقت العصر من يوم الجمعة جاءوا بالجارية إلى شيءٍ قد عملوه مثل ملبن الباب[347] فوضعت رجليها على أكف الرجال وأشرفت على ذلك الملبن ، وتكلمت بكلام لها فأنزلوها ، ثم أصعدوها ثانيةً ، ففعلتْ كفعلها في المرةِ الأولى ، ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثةً ، ففعلتْ فعلَها في المرتين ، ثم دفعوا إليها دجاجةً فقطعت رأسَها ورمتْ به وأخذوا الدجاجةَ فألقوها في السفينةِ .

فسألتُ الترجمان عن فعلِها فقال : قالتْ في أولِ مرةٍ أصعدوها : هو ذا أرى أبي وأمي ، وقالتْ في الثانيةِ : هو ذا أرى جميع قرابتي الموتى قعوداً ، وقالت في المرةِ الثالثةِ : هو ذا أرى مولاي قاعداً في الجنةِ والجنةُ حسنةٌ خضراءُ ومعه الرجالُ والغلمانُ وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه .

فمروا بها نحو السفينةِ فنزعت سوارين كانا عليها ودفعتهما إلى المرأةِ التي تُسَمَّى ملك الموت وهي التي تقتلها ، ونزعت خلخالين كانا عليها ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها وهما ابنتا المرأة المعروفة بملك الموت .

ثم أصعدوها إلى السفينةِ ولم يدخلوها إلى القبةِ ، وجاء الرجال ومعهم التراس[348] والخشب ودفعوا إليها قدحاً نبيذاً فغنّتْ عليه وشربتْه فقال لي الترجمان : إنها تودِّع صواحباتها بذلك ، ثم دفع إليها قدح آخر فأخذته وطوّلت الغناءَ والعجوزُ تستحثُّها على شربِه والدخولُ إلى القبةِ التي فيها مولاها فرأيتُها وقد تبلدت[349] وأرادتْ دخول القبةِ فأدخلت رأسها بينها وبين السفينةِ فأخذت العجوزُ رأسَها

(346) يذكر د . الدهان في هذ الموضع أن التفصيل في كتاب (هفت إقليم) لأمين الرازي يزيد النص أهمية ، وقد نقل عن مخطوطة لابن فضلان ضاعت . وهذه هي المرة الأولى التي تجري فيها الإشارة لكتاب الرازي هذا عند الدهان .

(347) ملبن الباب : قالب الآجر وهو هنا خدود الباب من عوارض الغلق يضم ألواحه . ولبنتا الباب : جابناه .

(348) التراس : بالأصل هو جمع ترس وهو صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل للوقاية من السيف ونحوه .

(349) تبلدت : ترددت متحيرة .

وأدخلتها القبةَ ودخلتْ معها .

وأخذ الرجالُ يضربون بالخشبِ على التراس لئلا يُسمع صوتُ صياحِها فيجزع غيرها من الجواري ولا يطلبن الموتَ مع مواليهن ، ثم دخل إلى القبةِ ستةُ رجالٍ فجامعوا بأسرهم الجاريةَ ثم أضجعوها إلى جانبِ مولاها وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها ، وجعلت العجوز التي تُسمى ملك الموت في عنقِها حبلاً مخالفاً ودفعتْه إلى اثنين ليجذباه وأقبلت ومعها خنجرٌ عريضُ النَّصْلِ فأقبلتْ تدخله بين أضلاعها موضعاً موضعاً وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت .

ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبة وأشعلها بالنار ، ثم مشى القهقرى نحو قفاه إلى السفينة ووجهه إلى الناس والخشبة المشعلة في يده الواحدة ، ويده الأخرى على باب إسته وهو عريان حتى أحرق الخشب المعبأ الذي تحت السفينة من بعدما وضعوا الجارية التي قتلوها في جنب مولاها .

ثم وافى الناس بالخشب والحطب ومع كل واحد خشبة قد ألهب رأسها فيلقيها في ذلك الخشب ، فتأخذ النارُ في الحطبِ ثمَّ في السفينةِ ثمَّ في القبةِ والرجلِ والجارية وجميع ما فيها ، ثم هبَّت ريحٌ عظيمةٌ هائلةٌ فاشتدَّ لهبُ النارِ واضطرم تسعُّرها[350] ، وكان إلى جانبي رجلٌ من الروسيةِ فسمعته يكلِّم الترجمان الذي معي فسألته عمَّا قال له فقال : إنه يقول : أنتم يا معاشر العرب حمقى .

فقلت : لم ذلك . قال : إنكم تعمدون إلى أحبِّ الناسِ إليكم وأكرمِهم عليكم فتطرحونه في التراب وتأكله التراب والهوام والدود ، ونحن نحرقُه بالنارِ في لحظةٍ فيدخل الجنةَ من وقته وساعته .

ثم ضحك ضحكاً مفرطاً فسألت عن ذلك فقال : من محبة ربِّه له قد بعث الريحَ حتى تأخذه في ساعة ، فما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والجارية والمولى رماداً مدداً .

ثم بنوا على موضع السفينة وكانوا قد أخرجوها من النهر شبيهاً بالتل المدور ،

---

(350) تسعُّر النار : اشتداد لهيبها وحرارتها .

ونصبوا في وسطه خشبةً كبيرةً خدنك[351] وكتبوا عليها اسمَ الرجلِ واسمَ ملكِ الروس وانصرفوا[352] .

قال : ومن رسم ملك الروس أن يكون معه في قصره أربعمئةِ رجلٍ من صناديد

---

(351) أي خشبة من خشب الحور الأبيض : خدنك .

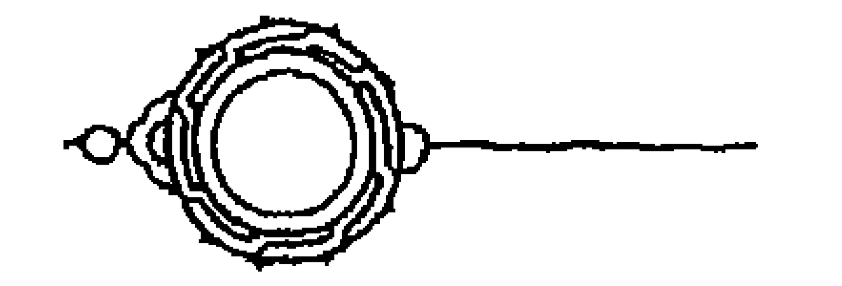
(352) يقول ابن خرداذبّه (300 هـ : 912م) في (المسالك والممالك) «فأما مسلك تجار الروس وهم جنس من الصقالبة فإنهم يحملون جلود الخزّ وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صَقْلَبة إلى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم ، وإن ساروا في تنيس نهر الصقالبة مرّوا بخمليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون إلى بحر جرجان فيخرجون في أيّ سواحله أحبوا ، وقطر هذا البحر خمسمائة فرسخ ، وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد ، ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدّعون أنهم نصارى فيؤدّون الجزية» . أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ؛ المسالك والممالك ؛ مطبعة بريل بليدن ؛ 1306 . وقد توفي ابن خرداذبه قبل أن يقوم ابن فضلان برحلته .

أما الإصطخري (المتوفى في عام 346هـ : 957م أي بعد رحلة ابن فضلان بـ 36 سنة) فيذكر في (مسالك الممالك) : «والروس لهم ثلاثة أصناف ، فصنف هم أقرب إلى بلغار ، وملكهم يقيم بمدينة تُسمى كويابة ، وهي أكبر من بلغار ، وصنف أبعد منهم يسمون الصلاوية ، وصنف يسمون الأرثانية ، وملكهم مقيم بأرثا ، والناس يبلغون في التجارة إلى كويابة ، فأما أرثا فإنه لا يذكر أن أحداً دخلها من الغرباء ، لأنهم يقتلون كل من وطئ أرضهم من الغرباء ، وإنما ينحدرون في الماء يتجرون ، فلا يخبرون بشيء من أمورهم ومتاجرهم ، ولا يتركون أحداً يصحبهم ولا يدخل بلادهم ، ويحمل من أرثا السمور الأسود والرصاص ؛ والروس قوم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا ، وتحرق مع مياسيرهم الجواري بطيبة من أنفسهن ، وبعضهم يحلق اللحى ، وبعضهم يفتلها مثل الذوائب ، ولباسهم القراطق القصار ، ولباس الخزر وبلغار وبجناك القراطق التامة ، وهؤلاء الروس يتجرون إلى الخزر ويتجرون إلى الروم وبلغار الأعظم ، وهم متاخمون للروم في شماليتها ، وهم عدد كثير يبلغ من قوتهم أنهم ضربوا على ما يلي بلادهم من الروم ، وبلغار الداخل هم نصارى» . أبي إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري : المسالك والممالك . القاهرة : وزارة الثقافية الإرشاد القومي ، 1961 . لاحظ قوله إن الجواري يحرقن أنفسهن بطيبة خاطر التي يبدو أنها مأخوذة من روايات ابن فضلان ، أو أنها كانت متداوَلة وشائعة قبله .

أصحابِه وأهلِ الثقةِ عندِه ، فهم يموتون بموتِه ويُقتلون دونَه ، ومع كلٍّ واحدٍ منهم جاريةٌ تخدمه وتغسل رأسَه وتصنع له ما يأكل ويشرب ، وجاريةٌ أخرى يطؤها وهؤلاءِ الأربعمئةِ يجلسون تحت سريرِه وسريرُه عظيمٌ مرصَّعٌ بنفيسِ الجوهرِ ويجلس معه على السرير أربعون جاريةً لفراشِه وربَّما وطئ الواحدةَ منهن بحضرة أصحابه الذين ذكرنا .

ولا ينزل عن سريرِه فإذا أراد قضاء حاجةٍ قضاها في طشتٍ ، وإذا أراد الركوبَ قدَّموا دابَّته إلى السرير فركبها منه ، وإذا أرادَ النزولَ قدم دابته حتى يكون نزولُه عليه ، وله خليفةٌ يسوس الجيوشَ ويواقع الأعداءَ ويخلفه في رعيَّته .

الخزر(353)



فأمَّا ملك الخزر واسمه خاقان فإنه لا يظهر إلا في كل أربعة أشهر متنزهاً ويقال له

(353) عندما يتناول ياقوت الحموي الخزر في (معجم البلدان) في النص التالي لا ندري في الحقيقة حدود نقله عن ابن فضلان وحدود إضافاته الشخصية . وإذا ماكان نص ياقوت ، موضوع هذا الهامش ، يقول بما لا شك به إنه ينقل عن ابن فضلان ، فإنه يسرد معطيات تبدو وكأنها لاحقة على ابن فضلان ، مثل وثنية الخزر التي يشير لها ابن فضلان في أكثر من مكان مقارنة بدياناتهم التوحيدية الثلاث التي تتحدث عنها استشهادات ياقوت عن ابن فضلان . في النص التالي ربما لا يتوجب اعتبار الفقرة : «وقال أحمد بن فضلان رسول المقتدر إلى الصقالبة في رسالة له ذكر فيها ما شاهده بتلك البلاد فقال الخزر : اسم إقليم من قصبة تسمى أتل وأتل اسم لنهر يجري إلى الخزر من الروس وبلغار» هي الفقرة الوحيدة التي يقلها ياقوت عن ابن فضلان ، بل اعتبار كل ما يليها بوصفه كلام ابن فضلان ، مضافاً إليها ما نقله ياقوت عن غيره وخلطه به . وهو ما تبرهنه النقولات الإضافية عن مخطوطة مشهد . في الحالة الأخيرة فإننا أمام مقطع مهم من كتاب ابن فضلان الضائع جزءٌ كبيرٌ منه . إننا نضع كامل الفقرة الطويلة التي يوردها ياقوت عن الخزر نقلاً عن ابن فضلان أمام القراء :

«وقال أحمد بن فضلان رسول المقتدر إلى الصقالبة في رسالة له ذكر فيها ما شاهده بتلك البلاد فقال الخزر : اسم إقليم من قصبة تُسمى أتل وأتل اسم لنهر يجري إلى الخزر من الروس وبلغار أتل مدينة والخزر اسم المملكة لا اسم مدينة والإتل قطعتان قطعة على غربي هذ النهر المسمى إتل==

== وهي أكبرهما وقطعة على شرقيه ، والملك يسكن الغربي منهما ويُسمى الملكُ بلسانهم يَلك ويسمى أيضاً باك ، وهذه القطعة الغربية مقدارُها في الطول نحو فرسخ ويحيط بها سور إلا مفترش البناء ، وأبنيتهم خركاهات لُبود إلا شيء يسير بني من طين ، ولهم أسواق وحمامات وفيها خلق كثير المسلمين يُقال : إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم ، ولهم نحو ثلاثين مسجداً وقصر الملك بعيد من شطِّ النهر وقصره من آجُر وليس لأحد بناء من آجر غيره يمكن الملك أن يبني بالآجر غيره ، ولهذا السور أربعة أبواب أحدهما يلي النهر وآخرها يلي الصحراءَ على ظهر هذه المدينة ، وملكهم يهودي ويقال : إن له من الحاشية نحو أربعةِ آلاف رجل ، والخزر مسلمون و نَصارى وفيهم عبدة الأوثان ، وأقل الفرَق هناك اليهود على أن الملك منهم وأكثرهم المسلمون والنصارى ، إلا أن الملك وخاصته يهود والغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان يسجد بعضهم لبعض عند التعظيم ، وأحكام مصرهم على رسوم مخالفة للمسلمين واليهود والنصارى وجريدة جيش الملك اثنا عشر ألف رجل ، فإذا مات منهم رجل أُقيم غيره مقامَه فلا تنقص هذه العدة أبداً ، وليست لهم جراية دائرة إلا شيء نزر يسير يصل إليهم في المدة البعيدة إذا كان لهم حرب أو حَزَبهم أمر عظيم يجمعون له ، وأما أبواب أموال صِلاَت الخزر فمن الأرصاد وعشور التجارات على رسوم لهم من كل طريق وبحر ونهر ، ولهم وظائف على أهل المحال والنواحي من كل صنف مما يحتاج إليه من طعام وشراب وغير ذلك . وللملك تسعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان إذا عرض للناس حكومة قضى فيها هؤلاء ، ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه وإنما يصل إليه هؤلاء الحكام ، وبين هؤلاء الحكام وبين الملك يوم القضاءِ سفير يراسلونه فيما يجري من الأمور ينهون إليه ويرد عليهم أمره ويمضونه . وليس لهذه المدينة قرىً إلا أن مزارعهم مفترشة يخرجون في الصيف إلى المزارع نحواً من عشرين فرسخاً فيزرعون ويجمعونه إذا أدرك بعضه إلى النهر وبعضه إلى الصحارى فيحملونه على العجل والنهر ، والغالب على قوتهم الأرز والسمك وما عدا ذلك مما يوجد عندهم يُحمل إليهم من الروس وبلغار وكويابه . والنصف الشرقي من مدينة الخزر فيه معظم التجار والمسلمون والمتاجر ولسان الخزر فيه غير لسان الترك والفارسية ، ولا يشاركه لسان فريق من الأمم ، والخزر لا يشبهون الأتراك وهم سود الشعور وهم صنفان صنف يسمون قراخزر وهم سمر يضربون لشدة السمرة إلى السواد كأنهم صنف من الهند ، وصنف بيض ظاهر والجمال والحسن والذي يقع من رقيق الخزر وهم أهل الأوثان الذن يستجيزون==

== بيع أولادهم واسترقاق بعضهم لبعض ، فأما اليهود والنصارى فإنهم يدينون بتحريم استرقاق بعضهم بعضاً مثل المسلمين . وبلد الخزر لا يجلب منه إلى البلاد شيء وكل ما يرتفع منه إنما هو مجلوب إليه مثل الدقيق والعسل والشمع والخز والأوبار . وأما ملك الخزر فاسمه خاقان وإنه لا يظهر إلا في كل أربعة أشهر متنزهاً ، ويقال له خاقان الكبير ويقال لخليفته : خاقان به وهو الذي يقود الجيش ويسوسها ، ويدبر أمر المملكة ويقوم بها ويظهر ويغزو وله تذعن الملوك الذين يصاقبونه ، ويدخل في كل يوم إلى خاقان الأكبر متواضعاً يظهر الإخبات والسكينة ، ولا يدخل عليه إلاحافياً وبيده حطب فإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب فإذا فرغ من الوقود جلس مع الملك على سريره عن يمينه ، ويخلفه رجل يقال له كندر خاقان ، ويخلف هذا أيضاً رجل يقال له جاويشغر ، ورسم الملك الأكبر أن لا يجلس للناس ولا يكلمهم ولا يدخل عليه أحد غير من ذكرنا ، والولايات في الحل والعقد والعقوبات وتدبير المملكة على خليفته خاقان به ورسم الملك الأكبر إذا مات أن يبني له دار كبيرة في عشرين بيتاً ، ويحفر له في كل بيت منها قبر ، وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل وتفرش فيه وتطرح النورة فوق ذلك ، وتحت الدار نهر والنهر كبير يجري فوقه ، ويجعلون ذلك القبر بينهما ، ويقولون حتى لا يصل إليه شيطان ولا إنسان ولا دود ولا هوام ، وإذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدرى أين قبره من تلك البيوت ، ويسمى قبره الجنة ويقولون قد دخل الجنة وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب . ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه يأخذها طوعاً أو كرهاً ، وله من الجواري السراري لفراشه ستون ما منهن إلا فائقة الجمال ، وكل واحدة من الحرائر والسراري في قصر مفرد لها قبة مغشاة بالساج ، وحول كل قبة مضرب ، ولكل واحدة منهن خادم يحجبها فإذا أراد أن يطأ بعضهن بعد إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها في أسرع من لمح البصر حتى يجعلوا في فراشه ويقف الخادم على باب قبة الملك فإذا وطئها أخذ بيدها وانصرف ولم يتركوا بعد ذلك لحظة واحدة ، وإذا ركب الملك الكبير ركب سائر الجيوش لركوبه ويكون بينه وبين المواكب ميل ، فلا يراه أحدٌ من رعيته إلا خرَّ ساجداً له لا يرفع رأسه حتى يجوزه . ومدة ملكهم أربعون سنة إذا جاوزها يوماً واحداً قتلته الرعية وخاصته ، وقالوا : هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه ، وإذا بعث سرية لم تول الدبر بوجه ولا سبب ، فإن انهزمت قتل كل من ينصرف إليه منها ، فأما القوّاد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم==

== فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون ، وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم ، وربما قطع كل واحد منهم قطعتين وصلبهم ، وربما علقهم بأعناقهم في الشجر ، وربما جعلهم إذا أحسن إليهم ساسة ، ولملك الخزر مدينة عظيمة على نهر إتل وهي جانبان ، في أحد الجانبين المسلمون وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه ، وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له : خز ، وهو مسلم ، وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم في التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في أمورهم ولا يقضي بينهم غيره . وللمسلمين في هذه المدينة مسجد جامع يصلون فيه الصلاة ويحضرون فيه أيام الجمع ، وفيه منارة عالية وعدة مؤذنين ، فلما اتصل بملك الخزر في سنة 310 أن المسلمين هدموا الكنيسة التي كانت في دار البابونج أمر بالمنارة فهدمت وقتلَ المؤذنين وقال : لولا أني أخاف أن لا يبقى في بلاد الإسلام كنيسة إلا هُدِمتْ لهدمتُ المسجد . والخزر وملكهم كلهم يهود . وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعته ويخاطبهم بالعبودية ويدينون له بالطاعة ، وقد ذهب بعضهم إلى أن يأجوج ومأجوج هم الخزر» . انتهى كلام ياقوت الحموي .

أما الإصطخري (المتوفى في عام 346هـ : 957م) فيقول عن الخزر : «وأما الخزر فإنه اسم الإقليم ، وقصبته تسمى إتل ، وإتل اسم النهر الذي يجري إليه من الروس وبلغار ؛ وإتل قطعتان : قطعة على غربي هذا النهر المسمى إتل وهي أكبرها ، وقطعة على شرقيه ، والملك يسكن في الغربي منهما ؛ ويسمى الملك بلسانهم بك ، ويسمى أيضاً باك ، وهذه القطعة مقدارها في الطول نحو فرسخ ، ويحيط بها سور ، إلا أنه مفترش البناء ، وأبنيتهم خركاهات لبود إلا شيئا يسيرا بني من طين ، ولهم أسواق وحمامات ، وفيها خلق من المسلمين يقال إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم ، ولهم نحو ثلاثين مسجداً ، وقصر الملك بعيد من شط النهر ، وقصره من آجر ، وليس لأحد بناء من آجر غيره ، ولا يسوغ الملك لأحد أن يبني بالآجر ، ولهذا السور أبواب أربعة ، منها إلى ما يلي النهر ومنها إلى ما يلي الصحراء على ظهر هذه المدينة ، وملكهم يهودي يُقال إن له من الحاشية أربعة آلاف رجل ، والخزر مسلمون ونصارى ويهود وفيهم عبدة أوثان ، وأقل الفرق اليهود ، وأكثرهم المسلمون والنصارى ، إلا أن الملك وخاصته يهود . والغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان ، يسجد بعضهم لبعض عند التعظيم ، وأحكام خصوا بها على رسوم قديمة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى ، وللملك من الجيش اثنا عشر ألف رجل ، وإذا مات منهم رجل أقيم آخر مكانه ، وليست لهم جراية دارة==

خاقان[354] الكبير ، ويُقال لخليفته خاقان به وهو الذي يقود الجيوشَ ويسوسها ويدبّر أمرَ المملكةِ ويقوم بها ويظهر ويغزو وله تذعن الملوكُ الذين يصاقبونه[355] ويدخل في كلٍّ يوم إلى خاقان الأكبر متواضعاً يظهر الأخبات[356] والسكينة ولا يدخل عليه إلا حافياً وبيدِه حطبٌ فإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطبَ ، فإذا فرغ من الوقود جلس مع الملك على سريره عن يمينه ، ويخلفه رجل يُقال له كندر خاقان ، ويخلف

== إلا بشيء نزر يسير ، يصل إليهم في المدة الطويلة ، إذا كان لهم حرب أو حزبهم أمر يجتمعون له . وأبواب مال هذا الملك من الرصاد وعشور التجارات ، على رسوم لهم من كل طريق وبحر ونهر ، ولهم وظائف على أهل المحال والنواحي من كل صنف ، مما يحتاج إليه من طعام وشراب وغير ذلك ؛ وللملك سبعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان ، إذا عرض للناس حكومة قضى فيها هؤلاء ، أهل الحوائج إلى الملك نفسه ، وإنما يصل إلى هؤلاء الحكام ، وبين هؤلاء الحكام -يوم القضاء- وبين الملك سفير يراسلونه فيما يجري من الأمر وينتهون إليهن فيرد عليهم أمره ويمضونه ؛ وليس لهذا المدينة قرى إلا أن مزارعهم مفترشة ، يخرجون في الصيف الزروع نحو عشرين فرسخاً ليزرعوا ، ويجمعوا بعضه على النهر وبعضه على الصحارى ، فينتقلون غلاتهم بالعجل وفي النهر ، والغالب على قوتهم الأرز والسمك ، وهذا الذي يحمل منهم من العسل والشمع إنما يحمل إليهم من ناحية الروس وبلغار ، وكذلك هذه الجلود الخز -التي تحمل إلى الآفاق- لا تكون إلا في تلك الأنهار ، التي بناحية بلغار والروس وكويابه ، ولا تكون في شئ من الأقاليم فيما علمته . والنصف الشرقي من الخزر فيه معظم التجار والمسلمين والمتاجر ، والغربي خالص للملك وجنده والخزر الخلص . ولسان الخزر غير لسان الترك والفارسية ، ولا يشاركه لسان فريق من الأمم (. . .) وللخزر مدينة تسمى سمندر فيما بينها وبين باب الأبواب ، لها بساتين كثيرة ، ويقال إنها تشتمل على نحو من أربعة آلاف كرم إلى حد السرير ، والغالب على ثمارها الأعناب ، وفيها خلق من المسلمين ، ولهم بها مساجد ، وأبنيتهم من خشب قد نسجت ، وسطوحهم مسنمة ، وملكهم من اليهود قرابة ملك الخزر ، وبينهم وبين حد السرير فرسخان ، وبينهم وبين صاحب السرير هدنة» . انتهى كلام الإصطخري .

(354) خاقان : ليس هذا اسم علم بقدر ما هو لفظ يدل على الملك والسيد والصدر الأعظم .

(355) يصاقبونه : يحاذونه ويجاورونه .

(356) الأخبات : خبت الرجل : خشع وتواضع .

هذا أيضاً رجل يُقال له جاوشيغر[357] .

ورسم الملك الأكبر أن لا يجلس للناس ولا يكلمهم ولا يدخل عليه أحدٌ غيرُ من ذكرنا .

الولاياتُ في الحلِّ والعقدِ والعقوباتِ وتدبيرِ المملكةِ على خليفته خاقان به .

ورسمُ الملكِ الأكبرِ إذا مات أن يُبنى له دارٌ كبيرةٌ فيها عشرون بيتاً ويُحفر له في كلِّ بيتٍ منها قبرٌ وتُكسر الحجارةُ حتى تصير مثلَ الكُحْلِ وتُفرش فيه وتُطرح النورة[358] فوقَ ذلك وتحت الدار نهرٌ والنهرُ نهرٌ كبيرٌ يجري ، ويجعلون القبرَ فوق ذلك النهر ويقولون : حتَّى لا يصل إليه شيطانٌ ولا إنسانٌ ولا دودٌ ولا هوام .

وإذا دُفن ضُرِبَتْ أعناقُ الذين يدفنونه حتى لا يدرى أين قبره من تلك البيوت ، ويُسمى قبرُه الجنة ويقولون : قد دخل الجنة وتفرش البيوت كلُّها بالديباج المنسوج بالذهب .

ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأةً كلُّ امرأةٍ منهنَّ ابنةُ ملكٍ من الملوكِ الذين يحاذونه يأخذها طوعاً أو كرهاً، وله من الجواري السراري[359] لفراشه ستون ما منهن إلا فائقةُ الجمالِ وكلُّ واحدةٍ من الحرائر[360] والسراري في قصر مفرد لها قبة مغشاة بالساج[361] وحول كل قبةٍ مضرب[362] ولكل واحدة منهم خادم يحجبها ، فإذا أراد أن يطأ بعضهن بعث إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها في

---

(357) جاوشيغر : يبدو أنها مشتقة من (جاويش) الكلمة التركية المعروفة : رتبة عسكرية أو أمنية أو مرتبة إدارية .

(358) النورة : هي الحجر الكلسي .

(359) الجواري السراري : اللاتي يتسرى ويتمتع بهنَّ .

(360) الحرائر : السيدات الحرات .

(361) الساج : شجر عظيم جداً لا ينبت إلا ببلاد الهند ، وخشبه أسود رزين لا تكاد الأرض تبليه ، جمعه سيجان ، الواحدة ساجة .

(362) المضرب : الساحة والمكان وقيل هو الفسطاط الكبير .

أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه . ويقف الخادم على باب قبة الملك فإذا وطئها أخذ بيدها وانصرف ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة .

وإذا ركب هذا الملك الكبير ركب سائر الجيوش لركوبه ، ويكون بينه وبين المواكب ميل فلا يراه أحدٌ من رعيته إلا خرَّ لوجهه ساجداً له لا يرفع رأسَه حتى يجوزه .

ومدة ملكهم أربعون سنة إذا جاوزها يوماً واحداً قتلته الرعية وخاصته وقالوا : هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه .

وإذا بعث سريةً لم تول الدبر[363] بوجهٍ ولا سبب فإن انهزمت قتل كل من ينصرف إليه منها ، فأمَّا القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون ، وكذلك دوابُّهم ومتاعُهم وسلاحهم ودورهم ، وربَّما قطع كلَّ واحدٍ منهم قطعتين وصلبهم ، وربَّما علَّقهم بأعناقهم في الشجر وربما جعلهم إذا أحسن إليهم ساسةً .

ولملك الخزر مدينةٌ عظيمةٌ على النهر إتل ، وهي جانبان في أحد الجانبين المسلمون وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه ، وعلى المسلمين رجلٌ من غلمان الملك يُقال له خز وهو مسلم ، وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم في التجارات

(363) أي لم تنهزم .

مردودة إلى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في أمورهم ولا يقضي بينهم غيرُه[364] .

---

(364) يتوقف د . الدهان عن النقل عن ياقوت في هذا الموضع لأنه يرى أن ما يلي لدى ياقوت لا يشابه أسلوب ابن فضلان . وهنا نص ياقوت الحموي كما هو في (معجم البلدان) :

«وقرأت في رسالة أحمد بن فَضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر إلى ملك الصقالبة حكى فيها ما عاينه منذ انفصل عن بغداد إلى أن عاد إليها فحكيت ما ذكره على وجهه استعجاباً به . قال ورأيت الروسية وقد وافوا بتجاراتهم فنزلوا على نهر إتل فلم أر أتمّ أبداناً منهم كأنهم النخل شُقر حمر لا يلبسون القراطف ولا الخفاتين ولكن يلبس الرجل منهم كساءً يشتمل به على أحد شقيه ويخرج إحدى يديه منه ، ومع كل واحد منهم سيف وسكين وفاس لا يفارقه وسيوفهم صفائح مشطبة أفرنجية ومن حد ظُفر الواحد منهم إلى عنقه مخضر شجر وصور وغير ذلك ، وكل امرأة منهم على ثديها حقة مشدودة إما من حديد وإما من نحاس وإما من فضة وإما من ذهب على قدر مال زوجها ، ومقداره في كل حقة حلقة فيها سكين مشدوة على الثدي أيضاً وفي أعناقهن أطواق ذهب وفضة لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهمٍ صاغ لامرأته طوقاً وإن ملك عشرين ألفاً صاغ لها طوقين ، وكلما زاد عشرة آلاف درهم يزيد لها طوقاً آخر فربما كان في عنق الواحدة منهن أطواق كثيرة وأجل الحلي عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذي يكون على السفن يبالغون فيه و يشترون الخرزة منه بدرهم وينظمونه عقداً لنسائهم . وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا يغتسلون من جَنابة كأنهم الحمير الضالة يجيئون من بلدهم فيرسونُ سُفُنهم بإتل وه نهر كبير ويبنون على شاطئه بيوتاً كباراً من الخشب ، ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر ، ولكل واحد منهم سرير يجلس عليه ومعه جواريه الرُوقة للتجار فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه ، وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحالة بعضهم بحذاءِ بعض ، وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهمْ جارية فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي أرْبه ، ولا بد لهم في كل يوم بالغداة أن تأتي الجارية ومعها قصعة كبيرة فيها ماء فتقدمها إلى مولاها فيغسل فيها وجهه ويديه وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة ، ثم يمتخط ويبصق فيها ولا يدع شيئاً من القذر إلا فعله في ذلك الماء فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي يليه فيفعل مثل ما فعل صاحبه ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت ، وكل واحد منهم يمتخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها ، وساعة موافاة سفُنهم إلى==

== هذا المرسى يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم ولبن وبصل ونبيذ حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه وجه الإنسان وحولها صور صغار، وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت في الأرض، فيوافي إلى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقول: يا رب قد جئت من بعد ومعي من الجواري كذا وكذا رأساً ومن السمور كذا وكذا جلداً، حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته، ثم يقول وقد جئتك بهذه الهدية، ثم يترك ما معه بين يدي الخشبة ويقول: أريد أن ترزقني تاجراً معه دنانير ودراهم فيشتري مني كلما أريد ولا يخالفني في جميع ما أقول، ثم ينصرف فإن تعسر عليه بيعه وطالت أيامه عاد بهدية أخرى ثانية وثالثة، فإن تعذر عليه ما يريد حمل إلى صورة من تلك الصور الصغار هدية وسألها الشفاعة وقال هؤلاءِ نساءُ ربنا وبناته ولا يزال إلى صورة صورة يسألها ويستشفع بها ويتضرع بين يديها، فربما تسهل له البيع فباع فيقول: قد قضى ربي حاجتي وأحتاج أن أكافئه، فيعمد إلى عدة من البقر والغنم على ذلك ويقتلها ويتصدق ببعض اللحم ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها، ويعلق رؤوس البقر والغنم على ذلك الخشب المنصوب في الأرض حتَّى إذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت ذلك، فيقول الذي فعله: قد رضي عني ربي وأكل هديتي. وإذا مرض منهم واحد ضربوا له خيمةً ناحيةً عنهم وطرحوه فيها وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء ولا يقربونه ولا يكلمونه بل لا يتعاهدونه في كل أيامه لا سيما إن كان ضعيفاً أو كان مملوكاً، فإن برأ وقام رجع إليهم وان مات أحرقوه وإن كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير، وإذا أصابوا سارقاً أو لصاً جاؤوا به إلى شجرة طويلة غليظة وشدوا في عنقه حبلاً وثيقاً وعلقوه فيها ويبقى معلقاً حتى يتقطع من المكث إما بالرياح أو الأمطار، وكان يُقال لي إنهم كانوا يفعلون برؤسائهم عند الموت أموراً أقلها الحرق، فكنت أحب أن أقف على ذاك، حتى بلغني موت رجل منهم جليل فجعلوه في قبره وسقفوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها، وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها، والغني يجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة أثلاث فثلث لأهله وثلث يقطعون له ثياباً وثلث يشترون به نبيذاً يشربونه يوم تَقتُل جاريته نفسها وتُحرق مع مولاها، وهم مستهترون بالخمر يشربونها ليلاً ونهاراً وربما مات الواحد منهم والقدح في يده، وإذاً مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه من منكم يموت معه فيقول بعضهم أنا فإذا قال ذلك فقد وجب عليه لا يستوي له أن يرجع أبداً، ولو أراد ذلك ما==

= تُرك وكثر ما ترك وأكثر ما يفعل هذا الجواري ، فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره قالوا لجواريه من يموت معه فقالت إحداهن أنا فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث ما سلكت حتى إنهما ربما غسلتا رجليها بأيديهما وأخذوا في شأنه وقطع الثياب له وإصلاح ما يحتاج له ، والجارية في كل يوم تشرب وتغنّي فارحة مستبشرة فلمّا كان اليوم الذي يحرق فيه هو والجارية حضرت إلى النهر الذي فيه سفينته فإذا هي قد أخرجت ، وجعل لها أربعة أركان من خشب الخلنج وغيره ، وجعل حولها أيضاً مثل الأناس الكبار من الخشب ، ثم مدت حتى جعلت على ذلك الخشب ، وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهمه ، وهو بعد في قبره لم يُخرجوه ثم جاؤوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات الديباج الرومي والمساند الديباج الرومي ، ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت ففرشت على السرير الذي ذكرناه وهي وليت خياطته وإصلاحه وهي تقتل الجواري ، ورأيتها حواء نيرة ضخمة مُكفَهرّة ، فلما وافوا قبره نحوا التراب عن الخشب ونحوا الخشب ، واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه فرأيته قد اسودَّ لبرد البلد ، وقد كانوا جعلوا معه في قبره نبيذاً وفاكهة وطنبوراً فأخرجوا جميع ذلك ، وإذا هو لم يتغير منه شيء غير لونه فألبسوه سراويل ورانا وخفاً وقرطقاً وخفتان ديباج له أزرار ذهب ، وجعلوا على رأسه قلنسوة من ديباج سمور ، وحملوه حتى أدخلوه القبة التي على السفينة وأجلسوه على المضربة وأسندوه بالمساند ، وجاؤوا بالنبيذ والفواكه والريحان فجعلوه معه وجاؤوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه ، وجاؤوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة ، ثم جاؤوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه ، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا ثم قطعوهما بالسيوف وألقوا لحمهما في السفينة ، ثم جاؤوا ببقرتين فقطعوهما أيضاً وألقوهما في السفينة ، ثم أحضروا ديكاً ودجاجةً فقتلوهما وطرحوهما فيها والجارية التي تقتل ذاهبة وجائية تدخل قبةً قبة من قبابهم فيجامعها واحد واحد وكل واحد يقول لها قولي لمولاكِ إنما فعلت هذا من محبتك ، فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة جاؤوا بالجارية إلى شيء عملوه مثل ملبن الباب فوضعت رجلها على أكف الرجال وأشرفت على ذلك الملبن وتكلمت بكلام لها فأنزلوها ثم أصعدوها ثانية ، ففعلت كفعلها في المرة الأولى ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة ففعلت فعلها في المرتين ، ثم دفعوا لها دجاجة فقطعت رأسها ورمت به فأخذوا الدجاجة وألقوها في السفينة فسألت الترجمان عن فعلها فقال قالت في المرة الأولى : هُو ذا أرى أبي وأمي . وقالت في المرة الثانية : هو ذا أرى جميع

قرابتي الموتى قعوداً . وقالت في المرة الثالثة : هو ذا أرى مولاي قعداً في الجنة والجنة حسنة خضراء ومعه الرجال والغلمان وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه . فمرُّوا بها نحو السفينة فنزعت سوارَين كانتا معها فدفعتهما إلى المرأة العجوز التي تسمى ملك الموت ، وهي التي تقتلها ونزعت خلخالين كانتا عليها ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها ، وهما ابنتا المعروفة بملك الموت ، ثم أصعدوها إلى السفينة ولم يدخلوها إلى القبة وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ودفعوا إليها قدحاً من نبيذ فغنت عليه وشربته ، فقال لي الترجمان إنها تودع صواحباتها بذلكٌ ، ثم دفع إليها قدح آخر فأخذته وطولت الغناء والعجوز تستحثها على شربه والدخول إلى القبة التي فيها مولاها فرأيتها وقد تبدلت وأرادت الدخول إلى القبة ، فأدخلت رأسها بين القبة والسفينة فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القبة ، ودخلت معها العجوز وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجواري فلا يطلبن الموت مع مواليهنٌ ، ثم دخل القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية ثم أضجعوها إلى جنب مولاها الميت ، وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها وجعلت العجوز التي تسمى ملك الموت في عنقها حبلاً مخالفاً ودفعته إلى اثنين ليجذباه ، وأقبلت ومعها خنجر عظيم عريض النصل فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعاً موضعاً وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت ، ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبة فأشعلها بالنار ، ثم مشى القهقرى نحو قفاه إلى السفينة والخشبة في يده الواحدة ويده الأخرى على إسته وهو عريان حتى أحرق ذلك الخشب الذي قد عبوه تحت السفينة من بعد ما وضعوا الجارية التي قتلوها في جنب مولاها ، ثم وافى الناس بالخشب والحطب ومع كل واحد خشبة وقد ألهب رأسها ، فيلقيها في ذلك الخشب فتأخذ النار في الحطب ثم في السفينة ثم في القبة والرجل والجارية وجميع ما فيها . ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتدَ لهب النار واضطرم تسعُرها وكان إلى جانبي رجل من الروسية فسمعته يكلم الترجمان الذي معه فسألته عما قال له : فقال إنه يقول أنتم معاشر العرب حَمقى لأنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم وأكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب فتأكله الهوام والدود ، ونحن نحرقه بالنار في لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته ، ثم ضحك ضحكاً مفرطا ، وقال : من محبة ربه له قد بعث الريح حتى تأخذه في ساعته ، فما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والرجل الميت والجارية رمادا رمِدداً . ثم بنوا على موضع السفينة وكانوا أخرجوها من النهر شبيهاً بالتل المدور ونصبوا

في وسطه خشبة كبيرة خدلج ، وكتبوا عليها إسم الرجل واسم ملك الروس وانصرفوا . قال : ومن رسم ملوك الروس أن يكون معه في قصره أربعمائة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده فهم يموتون بموته ويقتلون دونه ، ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل ويشرب وجارية أخرى يطؤها وهؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سريره وسريره عظيم مرصع بنفيس الجواهر ويجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشه وربما وطيءَ الواحدة منهن بحضرة أصحابه الذين ذكرنا ولا ينزل عن سريره ، فإذا أراد قضاء حاجة قضاها في طشت ، وإذا أراد الركوب قدموا دابته إلى السرير فركبها منه ، وإذاً أراد النزول قدم دابته حتى يكون نزوله عليه ، وله خليفة يسوس الجيوش ويواقع الأعداء ويخلفه في رعيته . هذا ما نقلتُه من رسالة ابن فَضلان حرفاً حرفاً وعليه عهدة ما حكاه والله أعلم بصحته وأما الآن فالمشهور من دينهم دين النصرانية» . انتهى كلام ياقوت .

ملحق

ابن فضلان
أغناطيوس كراتشكوفسكي

. . . وعلى العكس من هذا برز في عصره عددٌ من الرحالين ممن زاروا الأصقاع القريبة من الاتحاد السوفيتي ونالوا شهرة واسعة بفضل أوصاف الرحلات التي خلفوها ، رغماً من أن أحدهم تمتع ببعض الصيت كشاعر أيضاً .

ويحتل ابنُ فضلانَ المكانةَ الأولى بينهم سواءً من الناحيةِ الزمنيةِ أو الأهميَّةِ الذاتيَّةِ ، وذلك بسبب رسالته المشهورة التي تجدَّد الاهتمامُ بها في الأعوامِ الأخيرةِ بنفسِ الدرجةِ التي تمتَّعت بها لأول مرَّةٍ منذ مائةٍ وعشرين عاماً . وهذا الأثرُ بلا شكٍّ جديرٌ بهذا الاهتمامِ خاصَّةً في الآونةِ الحاضرةِ بعد أنْ أصبح لأوَّلِ مرَّةٍ في متناولِ أيدي الجميع في طبعةٍ كاملة تقريباً .

وفيه نجد أثراً طريفاً بالنسبةِ لعصرِه ، فهو يقدِّم لنا صورةً حيَّةً للظروفِ السياسيَّةِ في العالمِ الإسلاميِّ والعلاقاتِ بين بلادِ الإسلام والبلادِ المُتَاخِمَةِ لها في آسيا الوسطى أو الأصقاعِ النائيةِ التي كانتْ تمثِّل أطرافَ العالَمِ المتمدِّنِ آنذاك مثلِ حوضِ الفولجا . وتحفل الرسالةُ بمادةٍ إثنوغرافيَّةٍ قيِّمَة جداً ومتنوِّعة بصورةٍ فريدةٍ ، وهي تمسُّ عدداً من القبائلِ التركيَّةِ البدويَّةِ القاطنةِ آسيا الوسطى ، وعدداً من الشعوبِ التي كانتْ تلعب آنذاك دوراً أساسياً في تاريخ أوروبا الشرقيَّةِ كالبلغارِ والروسِ والخزرِ . كما لا يمكن إنكارُ قيمتِها الأدبيَّةِ وأسلوبِها القصصيِّ السلسِ ولغتِها الحيَّةِ المصوَّرةِ التي لا تخلو بين آونةٍ وأخرى من بعضِ الدُّعابةِ التي ربَّما لم تكنْ مقصودةً .

وقد تمَّ إعدادُ هذه السفارةِ كطلبِ بلغارِ الفولجا الذين أرسلوا رسولاً إلى عاصمة الخلافة يرجون العونَ ضد ضغطِ الخزرِ عليهم من الجنوبِ ، وأن يُنْفَذَ إليهم من يفقِّههم في الدينِ ويعرِّفهم بشعائرِ الإسلامِ الذي اعتنقوه منذ عهدٍ غيرِ طويلٍ ، وقد أُرسلتْ إليهم سفارةٌ تحت رئاسةِ سوسن الرسي كان من أفرادها أحمد بن فضلان كفقيه ذي خبرة ؛ وعلى الرغمِ من عدم وجودِ أيَّةِ معلوماتٍ عنه إلا أنَّه يحاول دائماً

في «الرسالة» أن ينسب إلى نفسه الدورَ الرئيسيَّ . هذا وقد غادرتْ السفارةُ بغدادَ في الحادي عشرَ من صفر عام 309هـ=21 يونيو 921 ووصلتْ إلى بلغارَ في الثامنِ عشرَ من المحرَّم عام 310هـ= 12 مايو 922 ؛ وقد مرَّتْ في طريقِها بهمدانَ والريِّ ونيسابورَ ومروَ وبخارى ، حيث التقى ابنُ فضلانَ في سبتمبر من عام 921 بوزيرِ السامانيين والعالمِ الجغرافيِّ الشهيرِ الجيهانيِّ ، ثمَّ ساروا مع نهرِ جيحونَ إلى خوارزمَ عندَ بحرِ آرالَ وعبروا صحراءَ أوست أورت ثم نهر يايق فوصلوا إلى حوضِ الفولجا . أمَّا تاريخُ وخطُّ سيرِ الرَّجعةِ فليس معروفاً لدينا إذْ أنَّ خاتمةَ «الرسالةِ» قد امتدَّتْ إليها يدُ الضياع .

ومن الطبيعيِّ أنْ يكون علماءُ الشمالِ هم أوَّلُ من سبق إلى لفتِ أنظارِ الدوائرِ العلميَّةِ في أوروبا إلى ابنِ فضلانَ ؛ وقد حدث ذلك في الدنمارك وروسيا . وظلتْ رحلتُه معروفةً لمدَّةٍ طويلة عن ياقوتَ وحدِه الذي حفظ لنا جزءاً كبيراً منها في معجمه الجغرافيِّ ؛ ثم أفرد لها المستشرقُ الروسيُّ فرين Frahn بحثاً رائعاً كان أشبَه ببراعةِ الاستهلالِ في تاريخِ الاستعرابِ الروسيِّ ، واستمر ثمانين عاماً تقريباً لا يبزه شيءٌ بلْ وحفَّزَ على ظهورِ عددٍ من الأبحاثِ بأقلامِ ممثلي مختلفِ الاتجاهاتِ العلميَّةِ ؛ احتلَّتْ من بينها مكانةً مرموقةً أبحاثُ روزن وبارتولد . وقد أدى الكشفُ عن مخطوطةِ مشهدَ في سنواتِ العشرينياتِ من هذا القرنِ إلى اتِّساعِ المادةِ عن ابنِ فضلانَ بشكلٍ ملحوظ ، وإذا صرفنا النظرَ عن خاتمتِها المفقودةِ فإنَّ هذه المخطوطةَ الأخيرةَ تمكِّننا لأوَّلِ مرَّةٍ من الحُكْمِ على الرسالةِ في صورتِها الكاملةِ . ولم تلبثْ دراسةُ ابنِ فضلانَ أن دخلتْ في طورٍ جديدٍ بفضلِ البحثِ الذي قام كوفاليفسكي A.P. Kovalevski (1939) ؛ ومن المستحيلِ بالطَّبْعِ الجزمُ بأنَّ جميعَ المسائلِ المتعلِّقةِ بمتنِ الرسالةِ قد حُلَّتْ نهائياً ، بيد أنَّ وجودَ مخطوطةِ مشهدَ سيمنع على أيَّةِ حال من تكرارِ مثلِ تلك الأخطاءِ التي تسرَّبَتْ إلى مؤلفاتِ هنغ Hennig الذي ينسب دائماً إلى ابنِ فضلانَ رواياتِ المؤلِّفِ الفارسيِّ عوفي الذي عاش في أوائلِ القرنِ الثالث عشر .

وعلى الرُّغمِ من ندرةِ المعلوماتِ عن شخصِ ابنِ فضلانَ إلا أنَّه لم يقم هنالك أدنى ريبٍ حولَ صحَّةِ نسبةِ الرسالةِ إليه . وإذا كان البعضُ قد أبدى ارتيابَه من وقتٍ

لآخرَ بشأنِها ، كما فعل عالمُ الآثارِ اسبتزن Spitzin ، فإنَّ ذلك يمسُّ في العادةِ بعضَ التفاصيلِ ولا يَثْبُتُ على محكٍّ النقدِ الدقيقِ .

من كتاب «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» الجزء الأول
ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، طبع القاهرة 1961

كشاف حضاري
وفهارس

الأعلام

أجناس وقبائل

الأماكن

التضاريس

(غ)

(ن)

النباتات

الحيوانات

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

مواد ومعادن

الأدوات والوسائل

الأسلحة

النقود

الحلي والمجوهرات

اللباس

الطعام والشراب

العادات

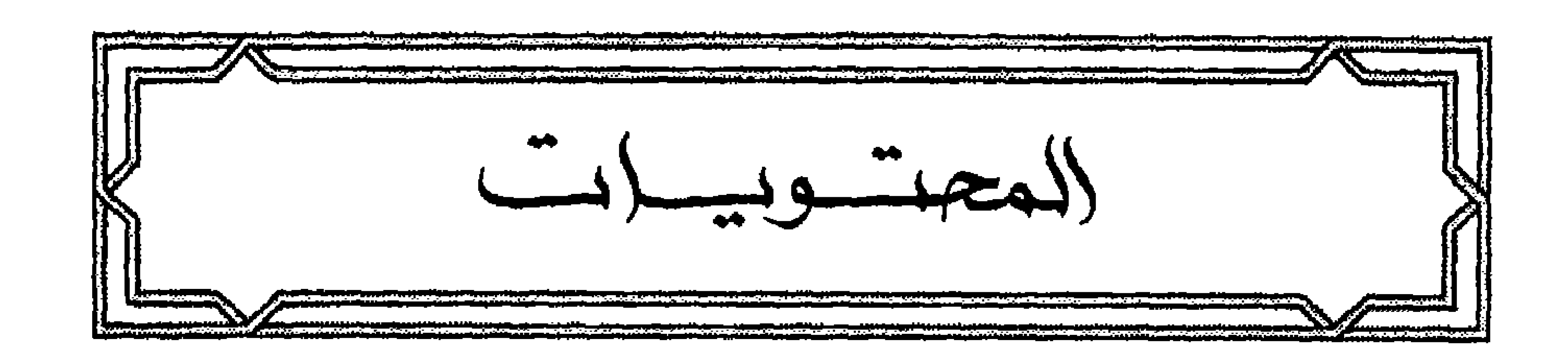
الأمراض والكوارث

العقاقير والعطور والبخور

الصناعات

منشآت

مصطلحات



المحتويات



رحلة ابن فضلان هي أقدم نص لرحلة قام بها عربي إلى الأصقاع البعيدة في العالم، فبلغ بلاد الترك، والروس، و الصقالبة "السلاف" سنة 921م.

أهمية هذه الرحلة أنها تزوّد تاريخ العالم بشذرات نادرة من أنماط معيشة شعوب قلّما سُجلت، فتسدُّ ثغرة تاريخية في هذا المجال. ويعتبر ابن فضلان رائداً في الإشارة إلى تاريخ الشعوب السلافية، والروس منهم على الخصوص. تكشف هذه الرحلة عن هوّة فادحة بين المستوى الحضاري الذي خرج منه هذا السفير، وبين الأقوام والشعوب التي حل في ظهرانيها، وكانت ماتزال في طور التوحش

قيل الكثير في هذه الرحلة، وترجمت أكثر من مرة إلى معظم اللغات الأساسية في العالم. أما هذه الطبعة فهي الأولى من نوعها في العربية لما جمعته من أصداء عن الرحلة شغلت حيزاً ملحوظاً في كتب التراث الجغرافي العربي، فضمتها إلى الكتاب، من ذلك الاستشهادات المطولة لياقوت الحم القزويني الذي لم يكن معروفاً لدى الباحثين أنه استخدم في ابن فضلان.


IS -7





